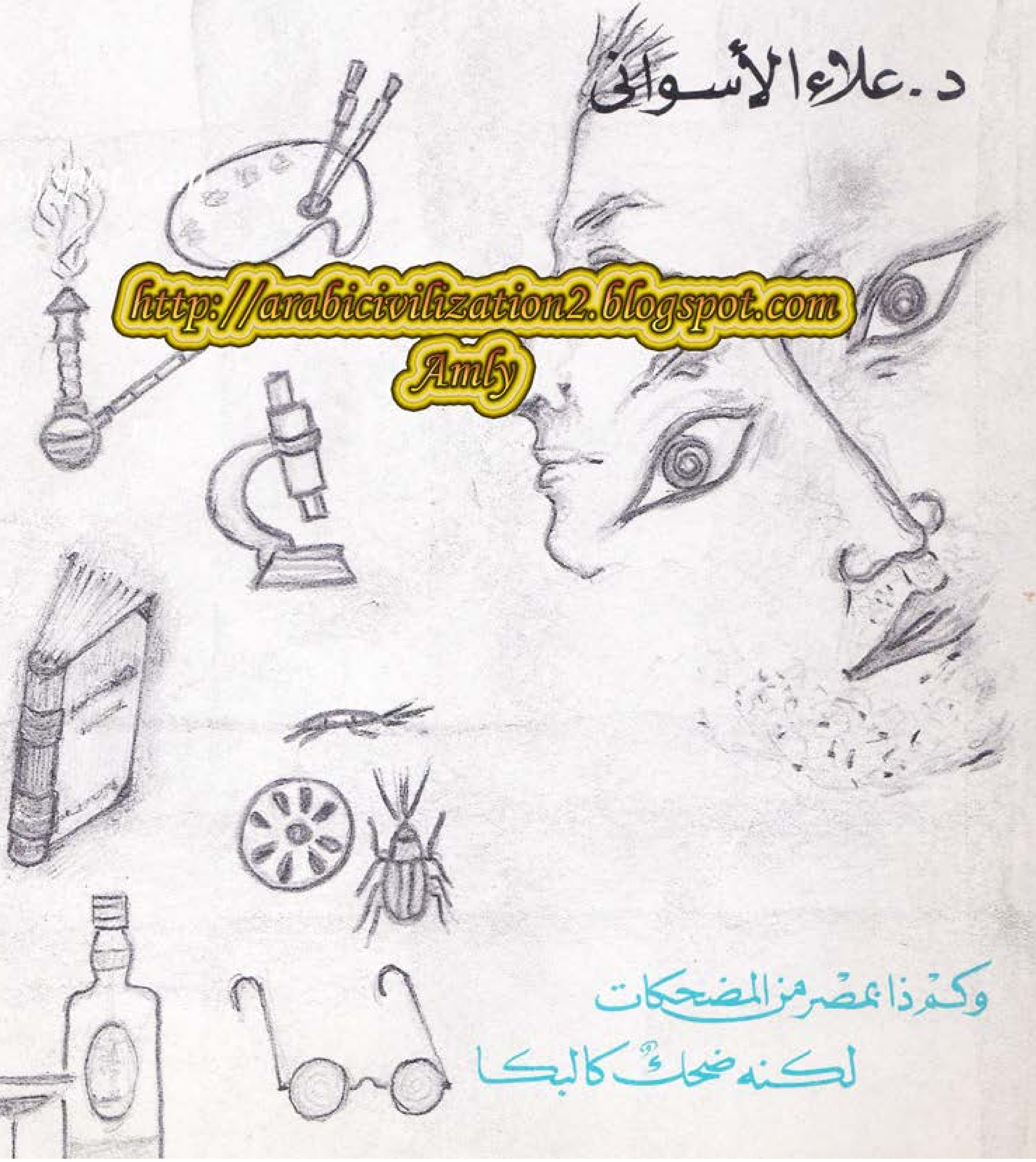
الطبعة الثانية

الذى اقترب ورأى

قصص

د. علاء الأسوانى



وكم ذا بمصر من المضحكات
لكنه ضحك كالبكا

الذى إقترب ورأى

قصص

" أحوال المصرى التعيس "

د . علاء الأسوانى

الغلاف إهداء من الفنان

عونى هيكل

إهـــداء

إلى عباس الأســـــوانى...

أبــى الذى علمـــــنى.

«عــــلاء»

فهـــرس

مقدمة

هذه المجموعة لها حكاية غريبة

فقد فرغت من كتابتها عام ١٩٨٩ وتقدمت بها إلى هيئة الكتاب لكى تنشرها، وعندما عرضها المسئولون بالهيئة على لجنة القراءة.. رفضتها باجماع الآراء ! لماذا ؟! لأن هذه المجموعة كما جاء فى التقرير. تحتوى على آراء هدامة وتسخر من قيم المجتمع والدولة والوطن!! وحاولت أن أشرح للمسئول فى الهيئة أن الآراء التى فى المجموعة هى آراء أبطال القصص وليست آرائي الشخصية وقلت لهم إن الكاتب لا يحاسب - فى كل العالم- إلا على آرائه فى مقالاته. أما القصص فهى خيال فى خيال ولكل شخصية روائية منطقها الفنى الخ.. الخ.. وهنا اقترح علىّ المسئول فكرة عجيبة وهى أن أكتب توضيحاً ينشر فى أول الكتاب أتنصل فيه من كل الآراء التى وردت فى المجموعة ووافقت وكتبت ما معناه أننى فلان الفلانى لا أوافق مطلقاً على الآراء التى وردت على لسان أبطال قصصى.. وبعد ذلك.. أعاد المسئول عرض المجموعة على لجنة قراءة أخرى فوافقت تلك اللجنة على نشر المجموعة بشرط واحد.. هو أن أحذف فصلين كاملين من من القصة الأولى.. ورفضت طبعاً وأخذت المجموعة من الهيئة وسعيت جاهداً حتى تحمس لها ناشر صديق، هو الأستاذ أمين المهدى ووافق على اصدار طبعة خاصة من ٣٠٠ نسخة فقط (مع مساهمة مالية منى) وبدأت أبعث بنسخ المجموعة إلى الكتاب والنقاد فى الصحف والمجلات وهنا حدثت المفاجأة فقد أشاد بالمجموعة عدد من كبار الكتاب لم كن أتوقعه، أو حتى أحلم به.

لقد كتب عن مجموعتى المتواضعة كل من الأساتذة:

علاء الديب وجمال الفيطانى وأحمد زكى عيد الحليم ورأفت الخياط وثناء أبو الحمد ونوال مصطفى وشريف فتحى ومصطفى عبد الله والمستشرق الفرنسى ريشار جاكمون.. وآخرون.

ولا أستطيع أن أصف سعادتى بتقدير هذه الأسماء الكبيرة لعملى الأدبى، لكن سعادتى ظلت ناقصة.. إذ لم يكن متاحاً لجمهور القراء أن يحصلوا على هذه المجموعة من الأسواق ولذلك سعدت عندما تم الاتفاق باعادة نشر المجموعة، مع دار سبيل للنشر.

وأخيراً، بعد رحلة طويلة ومضنية حقاً، ها هى مجموعتى القصصية بين يديك أيها القارئ العزيز.

د. علاء الأسوانى

١

أوراق عصام عبد العاطى

(١)

«لو لم اكن مصريا لوددت ان اكون مصريا»

مصطفى كامل

اخترت هذه العبارة لأبدأ بها أوراقى لأنها فى رأى أسخف ما سمعت فى حياتى! وهى تمثل- إن كان صاحبها صادقاً- نوعاً من التعصب القبلى الغبى الذى ما إن أفكر فيه حتى يتملكنى الغيظ، فماذا لو أن السيد مصطفى كامل ولد صينياً مثلاً أو هندياً؟ هل كان سيردد نفس العبارة معتزاً بجنسيته الصينية أو الهندية؟ وهل لاعتزازه هذا أية قيمة إذا كان وليد الصدفة؟؟ وإذا كان مصطفى كامل يختار- بإرادته الواعية كما يزعم- أن يكون مصرياً! فلابد أن أسباباً هامة تدفعه إلى هذا الأختيار! لابد أنه يرى فى الشعب المصرى فضائل لا توجد فى أى شعب آخر! ما هى هذه الفضائل إذاً؟! هل يتميز المصريون مثلاً بالجدية وحب العمل كالألمان أو اليابانيين؟! هل يعشقون المغامرة والتغيير كالأمريكان؟! هل يقدرون التاريخ والفنون كالفرنسيين والإيطاليين؟! ليسوا على أى شئ من ذلك.. بماذا يتميز المصريون إذن؟! أين هى فضائلهم؟ أننى أتحدى أى شخص أن يذكر لى فضيلة مصرية واحدة؟! الجبن والنفاق، الخبث واللؤم، الكسل والحقد، تلك صفاتنا المصرية ولأنا ندرك حقيقة أنفسنا فنحن نداريها بالصياح والأكاذيب. شعارات رنانة جوفاء نرددها ليل نهار عن شعبنا المصرى «العظيم» والمحزن أننا من فرط ترديدنا للأكاذيب صدقناها، بل إننا- وهذه مدهشة حقاً- ننظم أكاذيبنا عن أنفسنا فى أغنيات وأناشيد، هل سمعتم عن أى شعب فى العالم يفعل ذلك؟ هل يردد الإنجليز مثلاً «آه يا إنجلترا يا بلدنا.. أرضك مرمر وترابك مسك وعنبر»!! هذا الابتذال من خصائصنا

الأصيلة..! تصوروا! لقد قرأت العبارة التالية فى كتاب المطالعة المقرر على الصف الثانى الابتدائى:

«إن الله يحب مصر كثيراً وقد ذكرها فى كتابه الكريم ولذلك فقد حباها بجو معتدل جميل صيفاً وشتاء وهو يحميها من كيد الأعداء».

أنظروا إلى ركام الأكاذيب الذى يحشونه فى عقول الأطفال. إن جونا «المعتدل الجميل» هذا، هو الجحيم بعينه: سبعة أشهر من مارس إلى أكتوبر والحر المستحر يشوى جلودنا حتى تنفق البهائم ويذوب أسفلت الشوارع من وطأة القيظ، ولازلنا نحمد الله على جونا الجميل! ثم... إذا كان الله يحمى مصر من كيد الأعداء كما يقولون فلماذا تم احتلالنا من كل شعوب الأرض؟ إن التاريخ المصرى ليس فى الواقع سوى سلسلة متصلة من الهزائم منينا بها أمام كل الأجناس بدءاً من الرومان إلى اليهود.

كل هذه الغباوات تثير أعصابى والذى يحنقنى أكثر أن نتمسح نحن المصريين الخاملين فى الفراعنة، كان الفراعنة أمة عظيمة حقاً ولكن ما علاقتنا نحن بهم؟ نحن نتاج مشوش فاسد لاختلاط جنود الفاتحين بالسبايا من الرعايا المهزومة. إن الفلاح المصرى الذى استبيحت أرضه وانتهكت رجولته على يد الغزاة قروناً طويلة قد فقد كل ما يربطه بأجداده العظام وهو من طول عهده بالذل قد ألفه واستكان إليه واكتسب مع الوقت نفسية الخادم. حاول أن تتذكر كم مصرياً شجاعاً بمعنى الكلمة رأيته فى حياتك! إن المصرى- مهما علت مكانته وزاد علمه- ينحنى أمامك ما دمت الأقوى، يبتسم فى وجهك ويداهنك وفى نفس الوقت يمقتك ويسعى للقضاء عليك بطريقة خفية مأمونة لا تكلفه مواجهة أو خطورة. مجرد خادم. هذا هو المصرى. أنا أكره المصريين وأكره مصر، أكرهها من كل قلبى وأتمنى لها

المزيد من التردى والبؤس، وبرغم حرصى على إخفاء كراهيتى لمصر تجنباً لمشاكل غبية فإننى أحياناً ما أعجز عن الكتمان. مرة كنت أتفرج فى بيت زميل لى على مباراة كرة قدم بين مصر وبلد إفريقى اسمه زائير وعندما أحرز اللاعب الإفريقى هدف الفوز فى مرمى مصر هللت فرحاً واستنكر الحاضرون سعادتى بالهزيمة. ولكننى لم آبه لهم، ورحت أتأمل بتشفى لذيذ وجوه اللاعبين المصريين بعد الهزيمة، كانت نظراتهم كابية منكسرة وملامحهم تقطر بالحزن والعجز، هكذا يبدو المصريون دائماً من آلاف السنين.

(٢)

تحرر عقلى من الخرافات دفعة واحدة وأنا فخور بذلك، فقد عرفت رجالاً كثيرين- بينهم أذكياء ومثقفون- أضاعوا العمر فى الأوهام، عقائد ونظريات خدعتهم فأمضوا سنوات يلاحقونها كالسراب: الوطنية، الدين، الماركسية، كل هذه الكلمات البراقة تكشَّف لى زيفها فى وقت مبكر. كان التخلص من الدين يسيراً، أما الماركسية فاستغرقت وقتاً أطول. أعترف أن فى الماركسية جانباً عقلياً يحترم، كما أنها تترك فى النفس أثراً لا يزول بزوال الفكرة. ظللت ماركسياً ملتزماً لمدة عامين لكننى كنت أشعر دائماً بأننى سوف أتحول. لم أفهم قط لماذا ينبغى على أن أضحى من أجل مخلوقات سوقية كالعمال والفلاحين؟ كنت أراقب العامة وهم يتبادلون القفشات المبتذلة، أتأملهم فى أيام الأعياد عندما يندفعون إلى الشوارع كالبهائم الهائجة، يدوسون بأقدامهم الثقيلة العمياء كل شئ جميل، عندئذ كانت كلمات ماركس العظيمة عنهم تتضاءل أمام احتقارى وكرهى، هل أناضل وأموت من أجل هؤلاء؟ إنهم حيوانات، لا يستحقون إلا الإزدراء والارهاب، هذه هى اللغة الوحيدة التى يفهمونها. جرب بنفسك أن تبدو ضعيفاً مرة واحدة أمام واحد من هؤلاء وانظر ما يفعله بك. بانقضاء

الماركسية تمت سيطرتى على عقلى وتحريره وشعرت حينئذ بالوحدة. إن الأوهام كما تخدعك تؤنسك، أما الحقيقة الباردة الصارمة فهى تلقى بك فى وحشة قاسية، على أننى بقدر نجاحى فى ترويض العقل كان فشلى فى السيطرة على مشاعرى، إن أعقد المشكلات العقلية لا تستعصى على فكرى لكن التصرف البسيط العفوى مع الناس يربكنى ويعجزنى. ثمة علاقة عكسية مؤكدة بين الوعى والفعل فيكون أقدر الناس على الفعل أخملهم ذهناً وأكثرهم بلادة والعكس صحيح؛ يزداد الوعى حدة فتضطرب حينئذ القدرة على الفعل. إن رأسى التى لا تتوقف لحظة عن التفكير وبحث كافة الإمكانات والإحتمالات، هذه الرأس تعوقنى عن التصرف السليم فى مواقف يعتبرها الناس عادية ويعبرونها بكل يسر. عندما أذهب لزيارة صديق فى بيته لأول مرة، تؤرقنى فكرة أن البواب الذى لا أعرفه: سيستوقفنى ويسألنى إلى أية شقة أنا ذاهب؟!. إن قلقى من سؤال البواب يسيطر عليّ لدرجة أننى كثيراً ما ألح على أصدقائى لنلتقى فى مكان عام بدلاً من زيارتهم فى بيوتهم (وهم طبعاً لا يحدسون السبب) وعندما أضطر فى النهاية لمواجهة الموقف، فى اللحظة التي أعبر فيها مدخل العمارة التى يسكن فيها صديقى أكون مرتبكاً كطفل، أصفر بفمى أو أتشاغل بالنظر إلى ساعة يدى أو أعبث بكم قميصى، أتظاهر بأننى لا أهتم. وسرعان ما يأتينى صوت البواب. ينادينى وأكون قد جاوزته فأتجاهل نداءه وأمضي مسرعاً ولا ألتفت لكنه يندفع خلفى، يلاحقنى، ويوقفنى فى النهاية ويسألنى، وبرغم توقعى لسؤاله إلا أننى فى كل مرة أشعر بإهانة بالغة من كل ما يحدث، وأرد على سؤال البواب بخشونة وقسوة أحياناً، وأحياناً أخرى أنسحق أمامه تماماً، أتلعثم وتخرج كلماتى مترددة مضطربة وعندئذ يستأسد البواب ويعلو صوته ويحدق فى وجهى بعينين قويتين مفتوحتين لأنه

يكون قد شعر بضعفى الذى لا أستطيعه أبداً فى هذا الموقف هو أن أبدو فى هيئة السيد الواثق المطمئن لقدرته، أن أرد على البواب بصوت هادئ وابتسامة قائلاً: أنا طالع لفلان بك، ولو أننى رددت عليه مرة واحدة بهذه الطريقة لتراجع فى الحال وانكمش فوراً إلى حجمة الطبيعى. هذا الاتزان فى التصرف هو ما ينقصنى ولا أستطع أن أحدد إن كانت مشاعرى المضطربة ترجع إلى وعيى الزائد أم إلى ظروف نشأتى. إن ذكريات صباى وشبابى تنطبع فى ذهنى بطريقة «تاريخية» على نحو ما، أحس وأنا أسترجع أحداث حياتى وكأنى بطل تراجيدى يتلقى ضربات القدر بقلب شجاع نبيل. إن الأبطال لا يلقون كالعامة أحداثاً عابرة وعادية. كل ما يحدث لهم هو «جلل» وقدرى بالضرورة، كما أن الأحداث لا تنطبع فى ذاكرتى كومضات متفرقة متناثرة، بل كخط متصل من نقاط متوالية بغير ما توقع أو تمهيد. أتخيل ذلك على هيئة صندوق من الكارتون يحتوى داخله على فواصل وقواطع تقسمه إلى ممرات صغيرة متداخلة.

هكذا يبدو الصندوق من أعلى، وفى داخل ممرات الصندوق الملتوية تمضى دمية خشبية صغيرة تتحكم فى حركتها خيوط كثيرة، خيوط دقيقة لا تكاد ترى لكنها قوية لا يمكن أن تنقطع، وتتجمع الخيوط فى يد واحدة كبيرة

خارج الصندوق. هذه اليد تتحكم فى حركة الدمية، وصاحب هذه اليد يرى الصندوق كاملاً بممراته ومنحنياته، أما الدمية فلا يمكن أن ترى إلا الممر الذى تعبره، وما أن تدرك نهاية الممر حتى تجذبها الخيوط إلى ممر جديد. أنا هذه الدمية والصندوق الكارتون حياتى واليد الكبيرة يد القدر.

إن القدر يقبض على مصائرنا كما تقبض اليد الكبيرة على الدمية. إحكام صارم لا مهرب منه، وهو يبعث بمقدراتنا وأمانينا، يعبث بنا ولايدفعه إلى ذلك سوى حبه الشديد للعبث، لا خير ولا عدل ولا حق ولا يحزنون، ولو أنه أدرك مرة ما يسببه لنا من أحزان، لو أنه أحس مرة بما يصيبنا من ألم، لتوارى حينئذ خجلاً من أفعاله.

(٣)

أحَبَّ الرسم من الصغر. وجوه الناس، الأشجار، السيارات فى الشوارع، كل ما تراه عيناه كانت تنطبع تفاصيله فى ذهنه الصغير ثم تجرى خطوطه على الورق لتعيد تشكيل الأشياء كما يحب أن يراها. ولما بلغ الخامسة عشر تحول حبه للرسم إلى مشكلة لأنه اهمل دراسته تماماً، كان يهرب كل صباح من المدرسة ويشترى بمصروفه ألواناً وكراسة رسم ثم يذهب إلى حديقة المجلس البلدى فى الزقازيق وينزوى وحيداً على مقعد خال فى الحديقة ويرسم، وأخذه أبوه بالشدة، ضربه كثيراً، وكثيراً ما أخفى ألوانه ومزق الرسوم ولكن كل ذلك لم يجدِ، كان حبه للرسم أقوى، وفى سن العشرين مات أبوه بمرض مفاجئ وتحدد يومها مصيره، انكسر الحاجز الآخير وسرعان ما هجر الزقازيق- حيث نشأ- إلى القاهرة وعاش فى غرفة صغيرة فوق سطح منزل قديم فى بين السرايات ولم يمض عامان حتى كان يرسم الكاريكاتير الرئيسى لثلاث مجلات أسبوعية، وفى الرابعة والعشرين أقام

معرضه الأول للرسوم الزيتية.

هذه البداية لا شك جديرة براغب أو بيكار أو غيرهما من كبار الرسامين، لكننى لا أتحدث عن هؤلاء، تلك كانت بداية «عبد العاطى» فهل سمع أحد عن هذا الاسم؟! عبد العاطى هو أبى، وبرغم بدايته الحارة المفعمة جاءت النهاية غريبة عن التوقع، لم يلمع عبد العاطى، لم يتحقق أمله الكبير فى الرسم. لم يغير شيئاً فى مسار الفن التشكيلى كما كان يحلم وبعد ثلاثين عاماً من هجرته إلى القاهرة ظل أبى رساماً مغموراً يكتسب من الرسم فى مجلة أسمها الحياة لا يقرأها أحد ويستعين على حياته بأعمال أخرى صغيرة بأن يشرف على صحافة الحائط فى بعض المدارس ويعطى بعض الدروس الخصوصية فى الرسم لأولاد الأثرياء، هذا ما توصل إليه عبد العاطى فى سن الخمسين وأسأل نفسى: لماذا فشل أبى؟ هل كانت الموهبة تنقصه؟ كان بالتأكيد أكثر موهبة من رسامين كثيرين نجحوا واشتهروا، هل قضى على أبى كسله وحبه للملذات؟ بالعكس . أبى لم يسرف فى الخمر والمخدرات إلا فى السنوات الأخيرة، قبل ذلك كان يعمل بغزارة وإصرار، كثيراً ما كنت أستيقظ فى الصباح وأنا صغير فأجده لم ينم وقد قضى الليل كله فى لوحة جديدة، كنت أحبه عندئذ. عينيه المرهقتين ووجهه المكدود وضحكته الخافتة الراضية. يجفف يديه بسرعة فى مريلته الملطخة بالألوان وينحنى على ليقبلنى فتحتوينى رائحته الخشنة الطيبة، ثم يجذبنى من يدى ويجرنى إلى الخلف قليلاً ويشير إلى اللوحة على الحامل ويسألنى وهو يتصنع الوقار:

– ما رأيك يا أستاذ فى الشغل؟ عجبك؟

وتحتج أمى بدعابة:-إنت بتسأل عصام؟ هو يفهم فى الرسم العيل ده؟

ويؤكد أبى وهو يحملنى إليه ويقبلنى:

- إزاى بقه! سيكون فناناً كبيراً! بكره أفكرك.

●●●

ليس الكسل ولا نقص الموهبة، ما السبب إذن؟ لما كبرت أدركت السبب. إن ما ينقص أبى هو اللمعان: تلك الهالة التى تحيط بالأعلام فتمنحهم التأثير فى الآخرين.

إن اللمعان صفة لا تكتسب لكنها توهب لأناس دون غيرهم، واللامعون يولدون وأماكنهم محفوظة على القمة، يكفيهم أن يعملوا ببعض الإتقان حتى ينهمر عليهم الإعجاب والتقدير، أما غير اللامع فإن اجتهاده معركة بائسة ضد الطبيعة لابد أن يخسرها، ومهما تفانى فى عمله فإن تقدير الناس يجيئه متردداً يتخلله شك وحذر .

إن الذى اكتشف العالم الجديد ليس «كريستوفر كولمبس»، بل هو ملاح عجوز موهوب اسمه «بنزون» كان يرافقه على السفينة وقد أشار بنزون على كولومبس بالطريق الصحيح للكشف ثم غمر اسمه النسيان فى ضجة المجد التى انطلقت حول اسم كولومبس اللامع المحظوظ.

كان قدر أبى كقدر بنزون. أن يخلق باهتاً، عادياً كملايين متشابهة لا يميزها شئ، متوسط القامة أصلع وبدين نوعاً، تجلس معه ساعة كاملة ثم ينصرف فلا تفكر به أو ربما تخطئ فى اسمه إذ لقيته بعد ذلك. صوته كانت به بحة خفيفة يظن من يسمعها أنها سرعان ما تزول فينجلى صوت يؤثر فى الأسماع، ولكن البحة لم تكن تزول وكان صوت أبى يصدر مخنوقاً وجمله مدغومة، كان يتحدث بسرعة وكأن الكلمات تتساقط من فمه وكان

مستحيلاً أن يحتفظ بانتباه الناس لما يقول أكثر من دقائق قصيرة، بعد ذلك ينصرف الناس عنه إلى محدثين آخرين وقد يجذبهم أبى حينئذ من أكمامهم أو يضغط أكتافهم بأصابعه ليستبقى الاهتمام، طفل عاجز تسبقه أمه فى الزحام فيتعلق بأهداب ثوبها لئلا يضيع. فى البيت لم يكن أبى الزوج الذى يضع القواعد، كان منصاعاً تماماً لأمى وكنت وأنا طفل لا أستشعر رهبة من أبى وعندما كان ينهرنى أحياناً كانت رغبة خبيثة ولذيذة تدفعنى لتحديه وعصيانه، ولما بلغت المرحلة الثانوية كان زملائى فى الإبراهيمية يندهشون عندما أخبرهم بأن أبى يعلم بتزويغى من المدرسة. كنت أخبر أبى بهدوء بأنى سأزوغ غداً وأذهب للسينما وكان يستمع إلىّ ثم يعبث فى شاربه- كعادته عندما يضطرب أو يفاجأ- ثم يتظاهر بالتفكير لحظة ويسألنى بين ضحكة عصبية تصلح للاعتذار:

- ألا تخشى أن تفوتك دروس هامة إن زوغت؟

ويكون هذا كل شئ، سؤال والأمر متروك لى، لو تجاهلت السؤال لانتهى الأمر عند ذلك أما لو ترددت وبان علىّ التفكير عندئذ يتشجع هو ويندفع، يحدثنى بحرارة عن أهمية الانتظام فى الدراسة ثم يقول بنبرة متلجلجة:

- لا أعرف... يعنى؟... أظن لا داعى لموضوع التزويغ، ما رأيك أنت؟

كان أبى ضعيفاً؛ فلحقت به هزيمة كاملة، لكنه برغم فشله وضعفه كان يعجبنى. يعجبنى لأنه تقبل هزيمته فى صمت من يعرف القواعد، لم يملأ الدنيا صياحاً ولم ينقلب إلى حشرة سامة. فى مسابقة كبرى ينتظر أبى نتيجته وسط المتسابقين وحين يعرف بخسارته وفوز سواه لا يندهش أو يغضب بل يلملم أشياءه بعناية وهو يبتسم فى حزن ثم لا يلبث أن يسرع الخطى ليلحق بالأتوبيس الأخير وإذا ما ارتاح لجاره فى المقعد يحكى له

بلهجة محايدة كل ما جرى فيتابعه الجار بإشفاق لأول وهلة لكنه بعد ذلك عندما يتأمله فإن شيئاً صغيراً كحذاء أبى أو قميصه أو حتى وجهه يدفع الجار لأن يتفهم لماذا فشل فيقلّ أسفه حينئذ أو يزول.

كثيرون يسهرون فى بيتنا، أسماء كثيرة، مهن وأعمار مختلفة، يختفى البعض بالسفر والموت وتظهر وجوه جديدة، برغم اختلافهم فإن خيطاً واحداً يجمعهم، كلهم مشروعات كبيرة لم تتحقق: «الغامدى» مدرس اللغة العربية كان الشعر أمله، و «محمد عرفان» ماركسى قديم ترك حلمه بتغيير العالم وقنع بالصحافة الفنية، يلفق أخبار الراقصات والمغنين ويبتز نقودهم، حتى عم «أنور» عرفت من أبى أنه كان يحلم بأن يكون ملحناً كبيراً وانتهى إلى عزف القانون وراء الراقصة «سكر»، وغيرهم كثيرون. مجموعة من ذوى الأحلام المحطمة، عجائز الفرح، يجتمعون كل ليلة ليلعنوا الحظ الأعمى والزمن الفاسد، فلان رأيناه وعرفناه عندما كان يسأل الله فى حق السيجارة وهو الآن يلعب بالأموال، فيللا فى المعادى وشاليه فى العجمى وثلاث سيارات فارهة، وفلان المغنى المشهور ألم يرسب فى اختبار الإذاعة فى الخمسينات؟ صدقوا هذه الحكاية لأننى كنت عضو اللجنة. عندما أجلس مع أصدقاء أبى لا أشعر لحظة بأنهم أصدقاء متحابون، يتشاحنون كثيراً وقد تنشب بينهم مشادات عنيفة لكنهم يحرصون دائماً على المجئ، لا ينقطعون لأن ما يجمعهم أقوى من العداوة، إنهم يحتاجون للاجتماع ببعضهم لأن إحساسهم بالإخفاق يذوب فى شعورهم بالجماعة، إذا اجتمعوا لا يخجل أحدهم من فشله.

أهرب من الجلوس معهم، أتعلل بأى عذر، لا أسهر معهم إلا إذا كان عم أنور موجوداً. عم «أنور» مختلف، أقرب أصدقاء أبى ، تربطهما عشرة ثلاثين عاماً، يوماً ما كان يعيشان معاً فى غرفة واحدة فى بين السرايات،

أبى يحلم بالرسم وأنور يحلم بالموسيقى، أنور يكسب كثيراً من عمله مع «سكر» وينفق ببذخ على نفسه وأصدقاءه، أعزب لم يتزوج لأن الزواج فى رأيه نكد والنكد يعجل بالموت. عم «أنور» ظريف، لا يكف لحظة عن السخرية وإثارة الضحكات من حوله، فى ليالى الهنا كما يسميها (ويكون ذلك بعد فرح أحد الأثرياء) يظهر عم «أنور» فى المجلس محملاً «بالخيرات»: زجاجة براندى كبيرة وقرش حشيش من الصنف الغالى وكيلو كباب وحلويات وعندما يلقاه الأصحاب مهللين يتصنع أنور هيئة الجد ويلقى إليهم بما يحمله وهو يردد فى نبرة أب حازم:

- كلوا وأشربوا حتى يتبين الخيط الأبيض فى نهار أبوكم الأسود.

لا يكره عم «أنور» أحداً كما يكره سكر الراقصة وهو يخصها بالجزء الأكبر من نوادره وتشنيعاته حتى أنه أحياناً عندما ينقطع الحديث ويسود الصمت فإن أحد الحاضرين يسأل أنور عن أخبار الست، حينئذ يندفع أنور ساخراً ببراعة من جهل سكر وتحكمها وعشاقها الأغنياء وخيبة أملهم ويضج المكان بالضحكات من جديد وبرغم حب أنور الطاغى للموسيقى فهو يقضى ليالى كاملة بغير أن يعزف، ويرفض فوراً وبخشونة إذا ما طلب إليه أحد أن يعزف، ولو أصر الطالب قد تحدث مشاجرة، وأصدقاء أنور يعرفون طبعه فلا يطلبون منه ويعرفون أنه فى لحظة معينة، ليس بمقدور أحد أن يتوقعها، يمد أنور فجأة يده ويتناول القانون ويلبس الخواتم ويشرع فى العزف، وإذا تأملت وجهه بعد لحظات من العزف لهيئ إليك أنه لم يعد يرى الحاضرين أو يميز ما حوله، بعدما يفرغ أنور يتلقى صيحات الإعجاب والتصفيق بوجه مأخوذ شاحب، ويظل وقتاً كذلك حتى إذا ما عاود شغبه وسخريته، عرفنا أنه عاد.

●●●

اليوم الثلاثاء، لا توجد أفراح. عم «أنور» يظهر مبكراً. أول القادمين.

لم تزل على وجهه آثار النوم وصخب سهرة الأمس. يحيى أمى بأدب ويدلف إلى المرسم. يخلع بذلته ويعلقها بعناية ثم يرتدى جلبابه. يحتفظ دائماً بجلباب له فى بيتنا. بعد قليل يدخل إليه أبى. يحتسيان الشاى معاً ثم يجلسان على أرض الغرفة وينهمكان فى إعداد عدة السهرة. يبدءان بالجوزة. تنظيف الجوزة وإعدادها مهمة ينشغل بها أنور وأبى وكثيراً ما يحتدم حولها النقاش، يكون رأى أبى أن التخشينة تكتم الدخان بينما يرى أنور أن البوصة مسدودة. أتأملهما: أنور بجلبابه المخطط وقد جلس وربع ساقيه وراح يمزق بأصابعه وريقات صغيرة يدسها بين عامود الجوزة والحجر وأبى بجواره يكرر النفخ فى مبسم البوصة فتسمع قرقرة الماء. عندما جاءا إلى القاهرة من ثلاثين عاماً، فنانان شابان مليئان بالعزم والطموح، هل كان يدور بذهنهما هذا المصير؟ ما أبعد البداية وأغرب النهاية. فى العادة يكون أنور الأمهر فى تشخيص مشكلة الجوزة وعندما يفرغ من وضع التخشينة يشعل حجراً للتجربة ويجذب نفسه طويلاً يسعل بشدة بعده وتحمر عيناه ويمد البوصة ناحية أبى ويقول:

- قلت لك التخشينة. أهى اتعدلت وبقت لوز. خد. إشرب وادعى لى.

وينظر أبى ناحيتى ويقول ضاحكاً قبل أن يدس المبسم فى فمه:

- عمك أنور أصله قبل المزيكا كان شغال ميكانيكى جوز فى بين السرايات.

وينبرى أنور قائلاً:

- يا بن القحبة. بلاش الكلام ده. إنت عاوز عصام يأخذ عنى فكرة وحشة.

ثم يلتفت إلىّ ويتخذ وجهه هيئة المظلوم ويقول:

- إوعى يا أستاذ عصام تصدق أبوك. أنا طول عمرى راجل مستقيم! أبوك هو اللى علمنى الحشيش، أنا كنت فاكره فى الأول شوكولاته.

وينطبق وابل من النكات والقفشات حتى يتخذ وجه أنور هيئة الجد فجأة ويقف ويدس يده فى جيب سترته المعلقة على الحائط ويخرج قطعة حشيش ملفوفة فى سلوفانة يناولها لأبى الذى يشمها ثم يعضها بأسنانه ويضغطها بين أصابعه ويقول:

- حلوة يا أنور! من عند مصطفى؟! إيه رأيك نستنى الجماعة ولا نبدأ بعزف منفرد.

ويجلس أنور القرفصاء من جديد ويقول بلهجة جادة تماماً:

- نبدأ بعزف منفرد من مقام السيكا.

يقطع الحشيشة بأسنانه، قطع صغيرة يوزعها على أحجار المعسل ثم يشعل الفحم وسرعان ما يبدأ التدخين، ويستبقيانى فأجلس وأدخن معهما، وبعد بضعة أحجار يسرى المخدر إلى رأس أنور فيسبل جفونه المنتفخة وتبدو فى عينيه نظرة ساهمة ويهز رأسه وكأنه يتابع حواراً داخلياً لا يسمعه سواه ثم يلتفت إلى أبى ويبتسم ويربت على ساقه البدينة يقول:

- يعنى يا سى عبده مش كنت سبتك من مسألة الرسم دى. فيها إيه يعنى لم كنت اتعلمت الرقص البلدي هوه الرقص عيب. كان زمانك بقيت حاجة تانية دلوقت. الوليه سكر بتعمل كده (وهنا يهز أنور وسطه وقد رفع ذراعاه إلى أعلى فى حركة راقصة). وتاخذ ..٥ جنيه فى الليلة بنت الحرام.

ويهم أبى بالرد لكن عم «أنور» ينهض فجأة واقفاً فى وسط الحجرة وقد أخذته الحمية ويصيح:

- حتقول لى إيه يا عبده بس؟ يا راجل حرام عليك... باقولك بتعمل كده تاخد . . ٥ جنيه. ثم يغيبان، أنور وأبى، فى ضحك طويل..

على الغداء، يشرب أبى كأساً من الروم، عادة تساعده على نوم عميق فى الظهيرة كما يقول. يبعث الروم حرارته فى أبى فيتحدث إلينا- أنا وأمى- ويضحك وأحياناً يتسرب إليه شجن غامض لكنه فى ذلك اليوم بدا مضطرباً على غير العادة، راح يعبث فى شاربه فى صمت وعيناه تحملقان فى الفراغ ولما سألته أمى مالك- وكأنه كان ينتظر السؤال- زفر أبى وتجرع رشفة من كأس الروم وقال وهو يعبث بعود كبريت بين أسنانه:

- تصوروا جاءني النهارده جواب من واحد معجب بأعمالى.

بدا أبى خجلاً واستطرد بصوت أعلى وكأنه يقول ما أعده من قبل:

- أنا طبعاً مبسوط كأى فنان بخطاب من معجب. بس مبسوط أكثر إن فيه حد متابع الفن التشكيلى فى كمصر فى الزمن بتاعنا ده.

ساد الصمت لحظة ورشف أبى من كأسه ونظرت أنا إلى أمى وخيل إلى أنها تود لو تقول شيئاً ولكنها لم تحدده بعد واندفعت أقول:

- هو فين الجواب؟

- عندك فى جيب البدلة.

نهضت ودسست يدي فى جيب الجاكيت المعلقة على الشماعة فى ركن فى الصالة وأخرجت الخطاب، كان مكتوباً على الظرف بخط أسود أنيق: الفنان الكبير «عبد العاطى» جريدة الحياة . ٦ شارع القصر العينى. فتحت الظرف وأخرجت الرسالة ولما بدأت أقرأ هتفت أمى:

- اقرأ بصوت عالى يا عصام.

لازلت أذكر اسم مرسل الخطاب، «محمود على فرغل» من منية النصر محافظة الدقهلية. قال إنه يعمل مدرساً للرسم وأنه يرسم لوحات بالألوان الزيتية وأنه يحلم بأن يكون رساماً كبيراً مثل أبى وأكد أنه يتابع أعماله فى جريدة الحياة كل أربعاء، وأنه رأى معرضاً واحداً أقامه أبى فى القاهرة منذ سنوات، وبرغم أنه جاء إلى القاهرة خصيصاً لرؤية المعرض وأنه كان يتمنى لو تحدث مع أبى إلا أن خجله الشديد منعه من تقديم نفسه إليه، لكنه عاد وأكد أنه سيزور أبى قريباً فى مكتبه بجريدة الحياة حتى يتعرف عليه ويعرض عليه لوحاته، ثم أنهى الخطاب بعبارة «تقبل تحيات تلميذك السائر على دربك» محمود على فرغل.

سواء كان فرغل معجباً حقيقياً بأعمال أبى، وهذا احتمال قائم لأنك تجد دائماً نوعاً من الناس يتابعون أشياء لا يعرفها سواهم وتحمسون لها جداً كأولئك الذين يشجعون نادى «الترسانة» أو عشاق صوت «عبد اللطيف التلبانى» مثلاً سواء كان فرغل معجباً بأبى أو منافقاً يتقرب منه ليساعده أو يقدمه لأحد فعندما انتهيت من قراءة الخطاب كان وجه أبى يتضرج بسعادة غامرة، أخذ يعبث بالشوكة فى الصحن الخالى وبدت فى عينيه نظرة سعيدة ،وزمت شفتيه كطفل يمنع نفسه من الابتسام، وهتفت أمى التى بدا أنها استوعبت لأول مرة ما يحدث:

- حلو قوى يا عبده. ألف مبروك. أنا رأيى بقى نبروز الجواب ده ونعلقه فى الصالون.

وضحكت أنا عالياً وصاح أبى مستنكراً:

- نبروز ونعلق إيه؟! أما انت وليه عبيطة صحيح.

وبهتت أمى لحظة لكنها انفجرت ضاحكة وهى تدمدم:

- يا سيدى خلاص... خلاص.. بلاش نبروزه . ما تزعلش.

وأشعل أبى سيجارة وأكدها- بلهجة هادئة رصينة هذه المرة- أنه ليس سعيداً بالمعجب لكنه سعيد من أجل الفن التشكيلى، ودار أبى حول هذه الفكرة وأكدها بعبارة مختلفة، ثم انتقل إلى كلام كثير عن واجب الفنان الكبير تجاه الناشئين الموهوبين. وتحدث عن أساتذته فى الرسم وتشجيعهم له، وأحسست أن أبى يتوق لليوم الذى يرى فيه فرغل، وأنه سيعمل كل جهده ليساعده.

دخل أبى لينام ثم حملت أمى الصحون إلى المطبخ وجلست وحدى. كان الخطاب لا زال موضوعاً أمامى على المائدة. تأملته. كان خط فرغل جميلاً مصقولاً. مددت يدى وتناولت الخطاب ونقل ملمس الورق لأصابعى احساساً منتظماً ناعماً. ونظرت إلى صورة أبى وأمى بثياب الزفاف المعلقة على الجدار. فكرت فى البدء فى طراز بدلة أبى فى الصورة. ثم ضاع تركيزى بعد ذلك للحظة ووجدتنى أشد الخطاب بين يدي. أمزقه. أصدر المزق صوتاً خافتاً خشناً وشكنى قلق مبهم لما انتهيت لكنى طردته واندفعت- وكأنما لأطمئن نفسى- أمزق الخطاب إلى قطع صغيرة ثم قطع أصغر. كان التمزيق يزداد صعوبة فى كل مرة، لكننى أكملته حتى صار الخطاب وريقات صغيرة تناثرت فجمعتها بعناية بيدى ودلفت إلى المطبخ وألقيت بها من نافذة المنور ورأيت الهواء يبعثرها فى كل اتجاه ثم تبادلت مع أمى حديثاً عادياً وتركتها ودخلت إلى غرفتى ونمت.

فى المساء أيقظتنى أمى وقالت وهى تقدم لى كوب الشاى «أبوك يريدك» لم أفكر بشئ محدد وقلت لنفسى اشرب الشاى وأدخن السيجارة ثم أغسل وجهى وأذهب إليه.

كان المجلس منعقداً كالعادة واستقبلتنى غيمة كثيفة من الدخان ورائحة الحشيش النفاذة وأدركت من عينى أبى المحتقنتين أنه يشرب من مدة وهلل عم «أنور» مرحباً.

- أهلاً يا عصام. أنت فين؟

ودعانى أبى للجلوس فجلست ومد إلىَّ عم أنور الجوزة فاعتذرت لأن لدىَّ مذاكرة وعقّب عم أنور وهو يدخل مبسم البوصة فى فمه:

- وماله.. هو ده يمنع.. أحسن مذاكرة تعملها وأنت مسطول. بالك وأنا فى ثانوى كنت ألف السيجارتين واتسلطن وبعدين أجعص مسألة رياضة ما تخدش فى إيدى ثانية.

- اتاريك ما نفعتش فى التعليم يا فقرى.

هكذا هتف محمد عرفان وضحك، وصدرت ضحكات خافتة من الجالسين، وشعرت بأن الجو متوتر لسبب ما، ولم ألبث أن أدركت أن دخولى عطل نقاشاً كان محتدماً بين أبى والغامدى. جاوز الغامدى الخمسين لكنه يبدو أصغر، وسيم، عيناه خضروان واسعتان وملامحه واضحة قوية محددة، شعره الكستنائى مصفف للوراء بعناية وبشرته بيضاء متوردة، شئ فى هذا الرجل ينفرنى منه، هذا الشئ أجده كثيراً فى مدرسى اللغة العربية، روح دعية وطابع لزج كريه، ابتسم الغامدى وقال بصوت واضح وبطء رصين، أستاذ يلقى على تلاميذه درس اليوم:

- المشكلة أنك متفائل يا عبده. متفائل أكثر من اللازم. إعلم أن الفن والأدب فى مصر قد ماتا تماماً، أمامنا نصف قرن على الأقل قبل أن يستعيد المصريون اهتمامهم بالفنون، قبل أن يتشكل للفن جمهور حقيقى، مع احترامى الشديد للأخ الذى بعث لك الخطاب.

كان وهو يتكلم يبتسم ويحدق بعينيه الخضراوين الواثقين فى وجوه الجالسين وبدا واضحاً أنه أثر فيهم وأنهم مقتنعون بما يقول وبدا أبى مضطرباً يجيش صدره بالاعتراض فتململ فى جلسته وتنهد ثم قال بطريقته السريعة المتقطعة:

- معلهش برضه يا غامدى. أفراد قلائل يصلحون كبداية.

وصاح الغامدى معترضاً فى نبرة تمثيلية وبدا من الواضح أنه مصر على هزيمة أبى للنهاية:

- بداية إيه يا أستاذ إصح بقى! كل ده لأن واحد معجب كتب لك جواب! عاوز تقنعنا أنه يوجد فى مصر جمهور للفن! إنزل الشارع وأنت تفهم ! مر على محطات الأتوبيس! بص فى وجوه الناس! دول ممكن يهتموا بالفن دول! دول بيناموا يحلموا بفراخ الجمعية.

ضحك الغامدى وضحك الحاضرون لكنى لم أضحك ولا عم أنور الذى تشاغل بتنظيف الجوزة وإن بدا أنه يتابع الحوار باهتمام. انحنى الغامدى للأمام وهو جالس وقال بطريقة من ينهى موضوعاً تافهاً طال حوله الجدل:

- إسمع يا عبده. أنا أريحك. إنت قلت لى كاتب الجواب بيشتغل إيه؟!

- مدرس.

هكذا تمتم أبى بصوت خافت.

- أيوه يعنى مدرس إيه؟!

سكت أبى لحظة ثم أجاب

- مدرس رسم ! بس ...

- بس إيه يا راجل! واحد مدرس رسم مش عاوزه يفهم فى الرسم. على الأقل المبادئ اللى درسها. مدرس رسم لما يتابع الرسم تقوم سيادتك؛ تعتبر إن دى علامة على وعى فنى. يا راجل حرام عليك.

أشاح الغامدى بيده وضحك وهو ينظر للحاضرين، كما يفعل لاعب الشطرنج بعدما يقوم بحركة أخيرة بارعة تنهى الدور لصالحه، ثم عاد لأبى وقال بنبرة نهائية تنضح بالسخرية:

- يا أستاذ عبد العاطى! إنت أعطيت موضوع الخطاب أكثر مما يستحق.

وصاح أبى مقاطعاً وقد بدا لأول مرة أنه نفسه قد بدا يشك فى صحة رأيه:

- لأ! المسألة مش إنه مدرس رسم! أنا حسيت من كلامه إنه شخص بيفهم.

- بيفهم ! ده بيفهم ؟!

هكذا تسأل الغامدى وأطلق ضحكة ساخرة وبدا المعنى الخبيث للجميع، إذ كيف يفهم من يعجب بأعمال عبد العاطي، واربد وجه أبى بغضب صادق وتمتم بانفعال

- أيوه بيفهم يا غامدى ! بيفهم أنا متأكد.

ثم ألتفت أبى حوله وكأنه يبحث عن شئ ونظر إلىّ وقال:

- قوم يا عصام هات الجواب من جوه.

نظرت إليه ووجدتنى أنهض ببطء وأتجه إلى باب الحجرة. ولعله أرجع ترددى إلي النسيان فقال:

- تلاقى الجواب فى الصالة . على الترابيزة. أنا فاكر.

استدرت من جديد ونظررت إلى أبى وقلت بنبرة خالية:

- أنا قطعته.

- إيه؟!

هكذا صاح أبى وقدا اتسعت عيناه وشعرت أننى أنزلق للنهاية فقلت مؤكداً ببطء:

- أنا قطعت الجواب.

كان ذلك فوق احتماله. انتفض واقفاً ودنا منى. أخذ يقترب حتى لفحت وجهى حرارة أنفاسه اللاهثة وتوقعت أن يصفعنى لكنه عاد فجأة للخلف وصاح:

- إنت مجنون! قطعاً مجنون! قطعت الجواب يا مجنون...

بدا وكأنه لا يجد ما يقوله وجعل يتحرك ويستدير ويصيح بنفس العبارات وكان عم «أنور» قد قام إليه وأمسك به يهدئه ووقفت أنا أرقب ما يحدث. لم أكن أشعر بخوف أو ندم. كان وعيى قد انفصل. كنت أرى أبى وأنور والجالسين وكأنهم أشكال هائمة غير محددة وأفقت على صوت أبى وهو يقول:

- سامع بقول إيه! غور من وشى.

ران الصمت لحظة وسمعت عم أنور وهو يهمس لأبى:

- مش كده يا عبده! كده كتير.

صوت أمى الخافت الملح يطن فى أذنى وأنا أجتاز الردهة:

- دى عملة ياعصام.. تقطع الجواب؟! شفت أبوك كان فرحان به قد إيه! تقوم تقطعه؟!

لم ألتفت إليها. دلفت إلى حجرتى وأغلقت الباب ورائى. وجلست بهدوء إلى المكتب وأشعلت المصباح وأخرجت كتاباً وبدأت أستذكر. لا زلت أذكر الدرس الذى قرأته فى تلك الليلة: «الضغط الأسموزى». تنتقل السوائل من خلال الأغشية نصف النفاذة. ينتهى تبادل السوائل على الناحيتين عندما يتساوى الضغط حول الغشاء. أبى وعم أنور والغامدى والخطاب وخط فرغل الجميل، كل ذلك كان يظهر فى ذهنى من حين لآخر وأنا أقرأ، صور منفصلة تلمع وتخبو ولكنى لا أنفعل بها. عندما يفاجئنى الحدث فإن ذهنى يسجل تفاصيله بدقة ويمر وقت قبل أن يعيد عقلي ترتيب الأحداث. عندئذ انفعل، ويكون انفعالى قوياً لكنه يجئ متأخراً. فرغت من المذاكرة حوالى الثالثة صباحاً وكانت تصلنى من المرسم ضجة بعيدة، أصوات وضحك وموسيقى. خلعت ثيابى وارتديت «البيجاما» وكنت أستعد للنوم لما سمعت وقع أقدام ثقيلة فى الردهة. خطوات أبى. نقر بأصبعه على الباب. لم أرد فتح الباب ببطء وأطل وابتسم ودخل. ظللت أنا واقفاً أمام السرير واقترب هو وارتمى على المقعد ومد قدميه وبدا من وجهه الذي بانت تفاصيله فى ضوء مصباح المكتب أنه مخدر تماماً ومتعب. مرت لحظة وجلست ببطء على السرير ولم يلبث أبى أن قال فجأة:

- إنت عندك محاضرات بكره الساعة كام؟

وأجبت:

- الساعة ١٢

فقال وكأن ما يشغله فعلاً هو موعد المحاضرات:

- كويس! تلحق تنام شوية عشان تروح بكره فايق.

عاد إلينا الصمت وشعرت بضيق مفاجئ، وودت لو ينصرف أبى ويتركنى لكنه تثاءب وقال لى:

- تعرف يا عصام أنا متفائل بمستقبلك جداً. متأكد أنك هتبقى عالم كبير. باحس انك بتحب دراستك. إنت مش بتحب دراسة الكيمياء؟!

كان فى صوته رنين زاد من ضيقى فلم أجبه ولكنه استطرد:

- أكيد أنت بتحب الكيميا والا ازاى تبقى متفوق كده! بس أهم حاجة انك تكمل يا بطل.. آه مش تاخد البكالوريوس وتريح. لابد من الدكتوراه. على أيامنا كان البكالوريوس حاجة كبيرة. إنما دلوقت! مش أقل من الدكتوراه عشان تقول إنك عملت حاجة! وبعدين إنت وراك إيه؟ لا مرتبط بواحدة ولا مستعجل على الجواز.. مش كده والا أنا غلطان! قول.. قول ما تكسفش.

أطلق أبى ضحكة وبدت دعابته محرجّة وثقيلة ثم استأنف وقد بدا مصراً على المرح :

- حتى لو فى واحدة شاغلاك. تقدر برضه تكمل دراستك. بالعكس يمكن الزواج المبكر يدفعك للشغل أكثر. أهم حاجة إن ما لكش طموح فنى. الفن هى الحاجة الوحيدة اللي يتخاف منها. تعرف ياعصام! أنا لما سبت دراستى ما فكرتش لحظة. كنت حاسس إنى بعمل حاجة طبيعية جداً. طبعاً أنا مش ندمان. عمرى ما ندمت على تفرغى للفن. ما كنتش ممكن أتخيل نفسى حاجة تانية. صحيح الظروف وقفت ضدى كتير. لكنى عملت إللىّ علىّ. قبل الثورة كنت باشتغل فى ٣ جرائد وكانت الناس بتقرأ وتفهم

وتقارن، وكان أى رسام جديد الناس تشوفه وتقدر موهبته. بعد التأميم المسألة بقت أكل عيش ساعات يتهيألى إن لا الناس بقى لها نفس تضحك ولا الرسامين لهم نفس يرسموا. الموضوع بقى أداء واجب. أنت بترسم نكته وعارف أنها بايخة والناس بيقروها وعارفين أنها بايخة بس بيقروها.

هممت بأن أطلب من أبى أن ينصرف. لكنى لم أستطع.

- إنت قريت النكتة اللى رسمها شاكر فى الأهرام النهاردة.

- لأ.

- لازم تقراها. دى غريبة قوى. أنا مش عارف شاكر ده إتهبل واللا إيه؟ تصور راسم إيه النهاردة؟ قرص شمس ومطلع منه خطين لافقهم حوالين بعض وكاتب تحت فى التعليق «تريكو». شوف السخافة. المفروض إن دى نكتة ومنتظر الناس تضحك لما تقراها. تضحك على إيه؟ على غباوة الرسام طبعاً إنما الأستاذ شاكر طبعاً رسام معروف والأهرام بيديله ٨٠٠ جنيه شهرى ولو رسم شخبطة ماحدش يقدر يكلمه. لأ والمهم إن شاكر فاهم نفسه فنان كبير وتقابله فى نقابة الصحفيين يعمل نفسه مش عارفك أو يفتكرك بعد شوية ويقولك «أهلاً يا فلان، معلهش أصل شكلك اتغير وأنا دماغى زى ما أنت عارف» طبعاً الحركة دى ما يعملهاش معايا أنا بالذات، بيجى لغاية عندى ويحفظ أدبه.

لم أعد احتمل فانتفضت واقفاً وبدا على أبى أنه فوجئ فصمت لحظة ثم نهض من مقعده وقال وهو يستدير ليخرج وكأننا انتهينا من حوار عادى فى ليلة عادية:

- طيب أسيبك بقى عشان تنام. تصبح على خير.

تقدم بخطوات ناحية الباب وأطرقت أنا ونظرت إلى الألوان المتداخلة المنقوشة على السجادة وغمرنى للحظة إحساس مبهم بأن أبى لم يخرج من الغرفة وأنه اقترب منى ولما رفعت رأسى كان واقفاً أمامى ومد يده بغير أن يتكلم ووضعها على كتفى ونظر إلى لحظة ثم قال:

- أنا متأسف يا عصام.

●●●

يكون أبوك شيخاً مريضاً عاجزاً وتمشى بجواره فى الطريق ، ويتشبث هو بيدك، يتوكأ عليك لئلا يسقط، يحدق المارة فى عاهة أبيك ويتفحصونك، تستقر نظراتهم على وجهك، كيف تشعر حينئذ؟ قد تخجل من عجز أبيك وقد تبالغ فى إظهار عطفك لتحظى بتقدير الناظرين وقد تنهره، تقسو عليه لأنك تحبه ولأنك حزين من أجله ولأنك تريده أن يعود كما كان قوياً قادراً.

تصدر مجلة الحياة يوم الأربعاء، وأنا ذهبت إلى بائع جرائد أمام الجامعة لأشتريها لكن البائع لم يعرفها ، وذهبت إلى بائع آخر فى ميدان الجيزة وبائع ثالث ورابع فلم يعرف أحد أن مجلة تصدر بهذا الاسم، وركبت إلى ميدان سليمان ودخلت إلى محل كبير للجرائد ولما اقترب منى البائع سألته بغير اهتمام:

- تسمع عن مجلة اسمها الحياة؟

تكلمت بهذه الطريقة لأنى كنت أشعر بالحرج والحزن فى كل مرة ينكر الباعة وجود المجلة التي يرسم فيها أبى وكنت أتوقع ألا يعرفها هذا البائع

بدوره وكان سؤالى عنها وكأنى لا أهتم يقلل من حرجى ويضعنى أنا والبائع على طرف واحد من الموقف وكأننى أيضاً وبرغم سؤالى عن المجلة أستنكر أن توجد مجلة بهذا الاسم، لكن البائع- لمفاجأتى- عرفها وقال:

- ١٥ قرش.

شعرت بالراحة ودفعت الثمن وأخذت المجلة وبحثت فى الصفحة الأخيرة حتى وجدت رسم أبى. مربع صغير موقع أسفله اسم «عبد العاطى»، تأملت النكتة المرسومة فى الطريق ولما وصلت إلى البيت كانت الساعة الثانية بعد الظهر وكان أبى نائماً لم يزل وفتحت باب غرفته ودلفت بهدوء ثم أزحت الستائر السوداء الثقيلة فغمر النور الحجرة وفتح أبى عينيه ببطء وانتبه إلى فقلت وأنا أبتسم:

- صباح الخير

- صباح الخير يا عصام. هى الساعة كام دلوقت؟

- أخبرته فتثائب ومد يده إلى المنضدة وجذب علبة السجائر وأشعل سيجارة وجذب نفسا أسلمه إلى نوبة سعال وجذبت أنا مقعداً واقتربت وجلست أمامه وكانت المجلة فى يدي فخبطت عليها وقلت ضاحكاً:

- عاجبك يا سيدى! النكتة اللى رسمتها النهاردة كانت حتودينا القسم.

وانزعج أبى وسأل فقلت وأنا أسوى طرف السجادة بقدمى وكأن ما أحكيه عارض وعادى ويحدث كثيراً:

- أبداً! اتخانقت مع واحد صاحبى حول قصدك من النكتة.

- يا ستار ! اتخانقت؟

هكذا تساءل أبى بدهشة.

- أنا عاوز أسألك الأول! الراجل اللى انت راسمه النهاردة! مش تقصد به «أنور السادات»!

ورد أبى :

- أيوه فعلاً.

وزفرت كمن أستراح وقلت:

- يبقى أنا كان عندى حق.

ونهض أبى واستند بظهره إلى حاجز السرير وقال وقد بدا الاهتمام فى عينيه:

- هى إيه الحكاية؟!

- أبدا! أصل أنت عارف مجلة الحياة مقروءة عندما فى الجامعة وأنا بقى كل يوم أربعاء لازم لى مشكلة مع أصحابى. كلهم بيقروا النكتة بتاعتك وبعيدن يوجعولى دماغى «أبوك قصده فلان ولا فلان» النهاردة بقى الرسم ده لو ماكنش ده أنور السادات المعنى كان هيتغير خالص.

ويسأل أبى وهو يضع النظارة ويتأمل ما رسمه بقلق:

- هى ملامحه مش واضحة؟

وأرد بتأكيد:

- طبعاً واضحة جداً. بس ده صديقى ده شيوعى وانت عارف الشيوعيين فيهم مراهقة، وهو مصر أنك يمينى ولا يمكن تهاجم السادات فى رسوماتك.

وأبدأ نقاشاً طويلاً مع أبى نختلف فيه دائماً وقد يحتد هو ويهاجمنى لكنى أكون مدركاً أنه برغم غضبه وحدته يكون سعيداً. وفى المساء يشكونى أبى لأصدقائه، يحكى لهم عن نقاشه معى ويصفنى بأنى- ككل جيلى- متعصب ومغرور ثم يقول بسرعة وسط الحديث:

- تصوروا يا جماعة! عصام بيقوللى إن «الحياة» مقروءة فى الجامعة وان زملاءه اتخانقوا معاه بسبب الرسم بتاعى النهارده.

يدس أبى هذه الجملة ثم يكمل حديثه بسرعة وأكاد أستشعر قلقه من أن يعترض عليه أحد أو يكذبه.

●●●

كان الوقت صيفاً وكان رمضان وكنت فى أجازة من الجامعة أنا لا أصوم ولا أبى ولكننا نراعى خاطر أمى فنحتفظ بنظام رمضان. إفطار وسحور. سهرت مع أصدقائى فى الفيشاوى وكان المقهى مزدحماً ومزعجاً ورجعت إلى البيت فى الثالثة صباحاً. كان أبى وأمى جالسين إلى المائدة. أمى تتناول السحور وأبى مستغرق فى التهام طبق من الكعك مع الشاى، من تهدل شفتيه ونظرته الذاهلة وتساقط فتات الكعك على جلبابه أدركت أنه مخدر، تبادلت معهما حديثاً عابراً ثم دخلت حجرتى وتصفحت جرائد اليوم التالى التى اشتريتها من الحسين ثم نمت واستيقظت فى الصباح على هزات محمومة ترج جسدى بقوة وفتحت عينى فرأيت أمى تلطم وجهها وتشدنى لأنهض. هرولت وراءها إلى غرفة أبي. رأيته عارياً مسجى على الفراش وكان يبدو وكأنه نائم لولا دمدمة تصدر من فمه وحركة واهية يهتز بها جسده الضخم وبدا على وجهه وكأن كابوساً يطارده فيحاول أن يستيقظ ليتخلص من الكابوس ولكنه يعجز وصرخت أمى مولولة:

- شوف أبوك يا عصام.

ثم انحنت عليه واحتضنته بذراعيها وأخذت تناديه ثم دفنت وجهها فى صدره وأجهشت بالبكاء. جاء الطبيب بعد ساعة وبعدما كشف على أبى بعناية انتحى بى وأخبرنى بصوت هامس أنه أصيب بجلطة فى المخ ونصحنى بنقله فوراً إلى المستشفى ثم طلب عشرين جنيهاً دسها فى جيبه شاكراً وانصرف وبذل عاملو الاسعاف جهداً مضنياً مع أمى حتى تمكنوا من الباس أبى جلباباً أبيض ثم وضعوه على النقالة ونزلوا على السلم وأنا وأمى وراءهما وبينما هم يجتازون بأبى مدخل العمارة ظهرت هدى خادمتنا الصغيرة فجأة وراحت بجسمها الضئيل وعصبتها وضفيرتيها تعدو وراء النقالة وتقفز حولها وتصرخ. وفى ضوء المصباح المعلق فوق سرير المستشفى بدا لى وجه أبى للمرة الأولى وكأنه انفصل إلى جزئين، جزء عينه جاحظة ومفتوحة على إتساعها ومحتقنة وجزء آخر مهزوم ومتهدل وكان أبى يحاول أن يتكلم فتصدر عنه حشرجة مكتومة مبهمة. تركتنى أمى معه وذهبت تستعلم عن بعض الشئون من إدارة المستشفى وبعد الظهر ظهر أصدقاء وأقارب وزملاء عمل وآخرون لا أعرفهم، تحدثوا معنا- أنا وأمى- عن رحمة الله وعن العلاج فى الخارج وعن أصدقاء لهم- يعرفونهم جيداً- أصابتهم نفس حالة أبي وقاموا بعون الله منها وهم الآن يرفلون فى ثياب الصحة والسعادة ثم انصرف الزوار واحد بعد الآخر وتركوا وراءهم باقات الورد وعلب الشيكولاته الملونة وظللت وأمى جالسين أمام أبى ولما أغمض عينه الجاحظة وأنتظمت أنفاسه أدركت أنه نام. كان الوقت متأخراً، وربما بعد منتصف الليل عندما سمعنا طرقاً خفيفاً على باب الحجرة ثم فتح الباب قليلاً وظهر من ورائه وجه عم «أنور»، كان يرتدى بدلة الشغل السموكن السوداء ذات الياقة اللامعة وتحتها القميص الأبيض والبابيون الأسود

المتهدل، جال عم أنور بنظرة فى أركان الحجرة ثم أشار إلىّ بيده فخرجت إليه وتبعتنى أمى واستمع منا إلى ما حدث، سألنا بالتفصيل عن آراء الأطباء وتوقعاتهم، كان وجهه مربدا وبدا من مقاطعته لنا ونحن نتحدث أنه ضيق الصدر ولم يلبث أن أطفأ سيجارته بحذائه وسأل أمى إن كان يستطيع أن يراه وتقدم وأزاح الباب ودخل ولما اقترب من أبى خيل إلى أن ومضة وعى مرت بسرعة فى عين أبى وأنه عرف أنور لكنها سرعان ما انطفأت وعادت للعين نظرتها الذاهلة وضحك عم أنور بصوت عال وقال:

- جرى إه يا سى عبده! دى حركة تعملها دى! إنت يعنى غاوى تقلقنا! ما انت زى البمب اهوه! دوّل بعتولى فى الفرح قالولى الحق عبده قلت لازم حصل حاجة وحشة.

والتفت أنور إلى أمى وقال:

- ده كلام يا مدام! كده تخضينى! ماله عبده ما اهو زى الحصان اهوه.

ثم عاد إلى أبى وبدا وكأنه يريد أن يفرغ كلامه دفعة واحدة أو أنه قد قرر ألا يصمت لحظة واحدة.

- بص بقى يا عبده! عقاباً لك على أنك قلقتنى أنا حاجيلك يوم الثلاثاء والعزومة على حسابك قزازة ٨٤ وكيلو كباب على حسابك. عصام والمدام شاهدين اهوه

أكاد أقطع بأن وجه أبى قد اختلج فيما يشبه الابتسامة، واستمر عم أنور يتكلم ويضحك ثم ودع أبى وحيانا وخرج وخرجت وراءه ولما جاوز الباب إلى ردهة المستشفى لم يلتفت إلىّ واتجه إلى اليمين حيث باب المصعد لكنه لم يلبث أن أبطأ خطوته ثم توقف وانحنى للأمام ووضع يديه على وجهه وعلا شهيقه فى بكاء عنيف.

وفى صباح اليوم التالى اشتبكت إحدى ممرضات المستشفى فى شجار مدو مع عامل النظافة واتهمته صراحة بسرقة طعام المرضى وصاح العامل بشتائم بذيئة واندفع محاولاً أن يضرب الممرضة لكن زملاءه اجتمعوا عليه ومنعوه، وفى اللحظة التي اجلسوه فيها على مقعد وبدأوا فى تهدئته كان أبى قد مات.

(٤)

حصلت على بكالوريوس العلوم وعينت فى وظيفة باحث فى مصلحة الكيمياء. كان التعيين مناسباً لظروفى لأننى فى ذلك الوقت كنت أبذل محاولات مضنية متوالية لتحقيق عزلتى وكان تعرفى إلى شخص ذكى واحد كفيل بتثبيط مهمتى لأننى كنت عندئذ سأتساءل:

«لماذا أتحمل كل هذا الألم لأنقطع عن الناس ما دام بينهم شخص ذكى بمقدوره أن يفهمني»، بهذا المعني فإن وجودى فى مصلحة الكيمياء عجل بعزلتى. المبنى عتيق كالح مترب أقيم فى ركن منسى من شارع رمسيس وطيلة خمسين عاماً هى عمر المصلحة ظلت الحياة الصاخبة تضج من حوله وهو قابع فى صمت الموت.

إنك تستعمل حمام منزلك أعواماً طويلة دون أن يخطر بذهنك مرة أن حياة ما تجرى داخل البالوعة. ولو أنك جربت مرة ورفعت غطاء البالوعة لتبدى لك عالم كامل، عشرات الديدان والحشرات المتنوعة تأكل وتتكاثر وتتنازع وتقتل بعضها، ولسوف تدهشك عندئذ فكرة أن هذه المخلوقات تحيا معك من سنين وأنت لا تعرف. نفس الصورة تراودني كل صباح وأنا أمشى وسط الجموع فى شارع رمسيس الحافل بالحركة والضجيج ثم اتركه وأنحرف وحدى إلى اليسار لأدخل إلى مصلحة الكيمياء، بالوعة تحوى فى ظلامها ورطوبتها مجموعة من الصراصير القذرة التي لو وطأت إحداها بقدمك

لانسحقت وأفرزت سائلاً أبيض لزجاً، الحشرات، هو الوصف «العلمي» لزملائي فى المصلحة أما رئيسى فى العمل الدكتور سعيد فصعب أن أجد وصفاً يلائمه الدكتور سعيد لم يحصل على الدكتوراه لكنه تقدم لامتحانها ثلاث مرات متوالية وفشل فأطلق عليه موظفو المصلحة- مجاملة أو سخرية- لقب الدكتور وسرعان ما تمسك هو باللقب وصار يغضب إن لم يُناد به. هذا الرجل يشغل منصب رئيس وحدة الأبحاث- أي رنين- ومع ذلك فإن معاناته الحقيقية فى الحياة تكون عادة بعد وجبات الطعام، فى ساعة الضحى يجلس الدكتور سعيد إلى مكتبه ويلتهم صينية كبيرة عامرة بالفول والطعمية والبيض المقلى مع البصل الطليانى والباذنجان المخلل، بعدما يفرغ لابد يفك حزام بنطلونه ليخفف الضغط على بطنه العظيم ثم يزدرد كوباً من الفوار المستورد ويبعث فى طلب الشاى. رأسه أصلع بلا شعرة واحدة وكأنه مريض أو متنكر ومع عينيه الجاحظتين وحواجبه الخفيفة ولغده المتدلى وصوته السوقى فإن النظرة الأولى إليه تخلف انطباعاً حيوانياً. كنت أتأمله أحياناً فتخطر لى فكرة غريبة، أتوقع على نحو غامض أن يقطع الدكتور سعيد حديثه فجأة ويكشف عن طبيعته الأصلية فيزوم أو يبرز لنا ذيله ويضعه أمامه على المكتب، كنت أدرك طبعاً أن هذا لن يحدث لكنه لو حدث لم يكن ليدهشنى كثيراً. فى وقت الشاى يتوافد على مكتب الدكتور سعيد كل أعضاء الوحدة، يتحلقون حوله ويقطعون الوقت بالحديث حتى ساعة الانصراف. ثلاثة أحاديث محببة إلى قلب الدكتور، الدورى العام للكرة لأنه أهلاوى مخلص وسوق السيارات لأنه يتوسط فى السيارات ويتكسب من ذلك ثم الأهم الجنس، أسراره وفنونه لأنه مغرم بالنساء بشكل فاضح، وسبب ذلك كما يتردد أن زوجتة مصابة بالبرود وهو لا يقوى على طلاقها أو الزواج من أخرى لأنها غنية وتنفق عليه ولذا فهو يشبع رغبته

بعيداً عن البيت، يشبعها فى مكتبه فى مصلحة الكيمياء. نعم فى مكتبه. الدكتور مغرم بشكل خاص بفراشات المصلحة وعاملاتها ذوق لا شك نشأ من تجاربه الأولى. إذا ما أعجبت عاملة الدكتور فهو يناديها كثيراً إلى مكتبه ويتبسط معها ويجزل لها العطاء وشيئا فشيئا يداعبها بنكاته الجنسية، يلقيها عليها بثبات ويضحك من قلبه وعندما يحين يوم الحسم يستدعى الدكتور المرأة إلى مكتبه ويأمرها بإغلاق الباب، باب مكتبه له قفل مخصوص لا يمكن فتحه من الخارج. بعدما تغلق الباب يطلب منها إحضار شئ من الدولاب ثم يقوم وراءها ويلصق جسده الضخم فى ظهرها ثم يحتضنها ويضاجعها، عندما يحدث هذا فى المكتب يكون العاملون فى الوحدة على علم، يهمسون بذلك ويثرثرون ويضحكون أو يأسفون لكنهم أبداً لا يعترضون بوضوح.

مضت أعوام والدكتور يمارس حياته الخاصة فى وحدة الأبحاث بسلام. مرة واحدة حدث ما عكر الصفو، عندما ظهرت فى المصلحة «أم عماد» شابة جميلة عيونها خضراد نزحت من طنطا بعد موت زوجها والتحقت بالمصلحة كعاملة بعقد مؤقت، أعجبت «أم عماد» الدكتور من اليوم الأول، وعدها بالسعى فى تعيينها وصار يأتى إلى المصلحة فى كل صباح وقد امتلأت جيوبه بأنواع من اللبان والبنبون يعطيها لأم عماد من أجل الأولاد. هل تعجل الدكتور يوم الحسم أم هو أساء التقدير من البداية؟! نادى عليها وأمرها بإغلاق الباب فأغلقته وكما هى العادة قام ليلتصق بها لكنها قاومته بجدية، لم يأبه واقترب أكثر فدمدمت محذرة بصوت واضح لم يرتفع بعد: «عيب كده». كانت الحكمة تقتضيه أن يكف لكنه استمر ربما لشدة هياجه أو لأنه لم ير فى رفضها إلا نوعاً ثقيلاً من الدلال. انقض عليها بكل جسده وطبق عليها بذراعيه فصرخت وظلت تصرخ ودوت الصرخات فى وحدة

الأبحاث فتجمع الموظفون فى لحظة أمام المكتب ولما استمر الصراخ تشجع أحدهم ودق على زجاج الباب، مرت لحظات من الصمت ثم سُمعت خطوات الدكتور الثقيلة، فتح لهم الباب بنفسه فتدافعوا إلى الداخل يمنون أنفسهم بمشهد العمر، أمام الدولاب وقفت أم عماد، مبهورة الأنفاس شعرها مشعث وجلبابها مشدود ممزق فى أكثر من موضع، كان منظرها ينم عن مقاومة عنيفة جرت من لحظات وراحت تردد بصوت باك وهى تعقد يديها على رأسها كأنها تندب:

- يا راجل حرام عليك! حتبقى انت والزمن! هو أنا لو كنت بتاعة كده كان بقى ده حالى! ربنا هو اللي يعلم. أنا قاعدة على عيالى حرام عليك.

دقيقة أو دقيقتان كادت خلالهما أم عماد أن تؤثر فى الموظفين لكن الدكتور سعيد استرد ثباته، أشعل سيجارة واقترب من أم عماد وأمسك كتفها بقوة ثم دوى صوته غاضباً كالرعد وهو يحرك إصبعه الأوسط فى حركة بذيئة:

- اسمعى يا روح أمك. الحركات دى تعمليها فى المولد. آه شى الله يا سيد. أنا لا أنا كرويا ولا أنا هندى. الحكاية ،والرواية والشوية دول أنا فاهمهم كويس. لآخر مرة باقولك قدام الرجالة دى. يا إما ترجعى الـ ..١٠ جنيه اللى كانت فى الدرج يا إما بشرفى حابلغ النيابة. فاهمة ولا لأ.

سرى اللغط والهمسات واستمع الموظفون إلى رواية الدكتور ثم استمعوا أيضاً إلى أم عماد وحاول بعضهم عقد مصالحة سريعة لكن الدكتور سعيد أبى. رفض الفكرة من أساسها وصاح فيهم:

- الله- جرى إيه يا اخوانا! دى ..١٠ جنيه هى لعبة؟! يعنى الأجر الإضافى بتاعى يروح أونطة؟ وضرب كف بكف وتمتم وكأنه مغتاظ:

- حلوة قوى دى.

وأقسمت أم عماد بأغلظ الأيمان ودعت على نفسها بالعمي وعلى ابنها عماد بالموت تحت التراب لو أنها لمست أو حتى رأت أية نقود ولكن عبثاً، ظل الدكتور مصراً على استرداد المبلغ الذى قبضه بالأمس ونسيه فى الدرج ولم يجده فى الصباح بعد ما نظفت أم عماد الحجرة. وكان الموظفون جميعاً يدركون الحقيقة لكنهم عقدوا اتفاقاً صامتاً على احترام رواية الدكتور والوقوف ضد أم عماد. كانوا يشعرون بأن انتصار أم عماد على الدكتور سعيد سيكون هزيمة لهم أيضاً بمعنى ما، فى اليوم التالى ذهبت وفود إليها ترهبها وترغبها فى الصلح وإرجاع النقود، وبدت هى وكأنها فقدت صوابها تصرخ وتدعو على نفسها وتقسم على المصحف، وتشعب الموضوع وعقدت جلسات وانفضت واستغرقت المشكلة الموظفين اسبوعاً كاملاً، حتى نجحوا أخيراً وذهبت أم عماد يدفعها الموظفون إلى مكتب الدكتور سعيد واعتذرت له وحبت على رأسه وكادت تقبل يده لولا أنه سحبها مستغفراً وصرح أمام الجمع- بنبرة يفهم منها غير ما يقول- أن أم عماد لم تسرق وأنه وجد الفلوس منسية فى جيب الجاكتة وأن أم عماد فى الواقع وليه بنت حلال وأنه يحبها وكأنها ابنته. كنت حاضراً فى مجلس الصلح ولما اقترح عبد العليم الساعى على الحاضرين قراءة الفاتحة لمباركة الصلح خيل إلىّ فى تلك اللحظة أن ما يحدث أمامى غير حقيقى، خطر لى أن الجالسين جميعاً ممثلون، الدكتور وأم عماد والموظفين، وأنهم يؤدون مشهداً متقناً ولن يلبثوا فى النهاية أن يخلعوا ثياب التمثيل ويسترجعوا شخصياتهم الحقيقية. ولاشك أن فكرتى الغريبة بانت على وجهى لأننى لاحظت أن الجميع يتحاشون النظر إلي وهم يتكلمون. لم يكن لدى شك فى أن زملائى يكرهوننى ويتوقون إلى فرصة يلحقون بى فيها أي أذى. من يومى الأول فى المصلحة تعمدت أن احتقرهم وأتعالى عليهم، بغير أن أتكلم كنت أعرف

كيف أشعرهم بتفاهتهم، حدث فى تلك الأيام أننى احتجت إلى نظارة طبية وتعمدت أن أختار إطار النظارة من النوع المستدير المصنوع من السلك الرفيع لأننى كنت أشعر أن هذا النوع من الإطارات يضفى على الوجه طابعاً متفوقاً يستفز الناس بشكل ما، كل صباح كنت أذهب إلى مكتبى متأبطاً الجرائد وكتاباً ضخماً اتعمد اختياره من نوع أعرف أن أحداً فى المصلحة لم يسمع عنه: «الأغانى» للأصفهانى، «تدهور الإمبراطورية الرومانية» لجيبون. بعدما أفرغ من الجرائد أفتح مجلدى الضخم وأستغرق فى القراءة وحين تزدحم الحجرة بالموظفين ويزداد الضجيج أرفع رأسى عن الكتاب وأسدد الحاضرين نظرة ثابتة بغير أن أتكلم، عندئذ يخفت الضجيج فى الحال وربما ينسحبون إلى الخارج.

كنت أرفض بإصرار محاولاتهم الملحة للاقتراب منى، للاتفاق معى على نقطة مشتركة، عندما كان يدنو منى أحد الموظفين مبتسماً ويسألنى متردداً:

- بتقرأ إيه يا أستاذ عصام؟

كنت أجيبه جاداً بلا تردد:

- الحقيقة الكتاب اللى معايا ده متخصص قوى وصعب عليك تفهمه. ثم أعاود القراءة فينسحب هو واجما، وبعد شهر واحد فى المصلحة كنت أستطيع أن ألمس بيدى كراهيتهم لى، الدكتور سعيد كان يعاملنى بحذر، كنت أرى فى عينيه نفوراً ورهبة. أنا بالنسبة إليه شئ غامض يخافه ويدرك أنه أرقى منه، جاءنى ذات صباح ولامنى ضاحكاً لأننى لا أزوره فى مكتبه كبقية الزملاء قال:

- يا أخى ابقى تعالى اشرب معانا الشاى. دى المجموعة ظريفة وادى احنا بنتسلى. وغمرتنى لذة خبيثة لأنه منحنى فرصة رائعة لصفعه فنظرت

إليه بجدية وكأنى لا أفهم ثم قلت بهدوء وأنا أعود للقراءة:

- أنا ما عنديش وقت أتسلى.

وبطرف عينى رأيت وجهه يربد بالغضب وقال وهو يغادر الحجرة:

- خلاص ما تجيش. الحق عليّ. هو احنا يعنى اللى فاضيين ما احنا ورانا مشاغل قد كده.

شعرت حينئذ بأنه لن يترك إهانتى له بغير عقاب، وأن معركة عنيفة قادمة لا ريب، وكان إحساسي صحيحاً.

فى شهر رمضان يتحول الدكتور سعيد إلى مؤمن ورع. المسبحة الطويلة الخضراء لا تفارق يده وطاقية شبيكة بيضاء يضعها على صلعته وفى قدميه يرتدى صندلاً مفتوحاً تبرز منه أصابع قدميه الغليظة المنتفخة بأظافرها السميكة، يقضى اليوم بين مكتبه والحمام يعيد الوضوء ويكثر من التسبيح ويؤم الموظفين الوقت بوقته ويقرأ القرآن من مصحف كبير يفتحه أمامه على المكتب .

فى اليوم الأول من رمضان جلست إلى مكتبي وأخرجت الصحف وبدأت أقرأ وطلبت من عبد العليم فنجان قهوة كعادتى كل صباح، ولاحظت أنه تلكأ ودمدم بصوت خافت لكنى لم أعره اهتماماً وانصرفت للقراءة. مضت نصف ساعة ولم يحضر عبد العليم القهوة ولما دخل إلى الحجرة لسبب آخر سألته عن القهوة فأجاب بصفاقة:

ما فيش قهوة النهارده. كل سنة وأنت طيب. رمضان كريم.

وقبل أن أرد استطرد بسرعة:

- دى تعليمات الدكتور سعيد. ما فيش قهوة وشاى فى رمضان.

عبد العليم فلاح عجوز، منوفى، يتجسس على الموظفين وينقل أخبارهم إلى الدكتور سعيد. يكرهنى كالجميع والتشفى واضح فى نبرته لأنه خادم والخدم يشعرون بلذة طاغية خبيثة إذا ما رأوا أحد السادة فى موقف ضعيف. نظرت إليه محنقاً وهممت بأن اشتمه وآمره بصنع القهوة وليكن ما يكون لكنى عدلت وأشعلت سيجارة وعاودت القراءة.

فى تلك الليلة ظللت متيقظاً حتى أذّن الفجر. لم أستطع أن أنام من الغيظ. كانت فكرة أن الحيوان سعيد يقّوم سلوكى ويتحكم فى تصرفاتى وأن الجهال والخدم يتطاولون علىّ تملؤنى بالمرارة.

فى صباح اليوم التالى عزمت على أمر فطلبت من هدى أن تعد لى ترموساً مليئاً بالقهوة وحملت الترموساً تحت ابطى ودخلت من باب المصلحة متحفزاً ولما وصلت إلى حجرتى وجدت على بابها ورقة معلقة قرأت فيها: «السادة أعضاء وحدة الأبحاث برجاء الامتناع عن تناول المشروبات خلال شهر رمضان المعظم احتراماً لمشاعر الصائمين. توقيع. الإدارة.» كنت أعرف خط الدكتور سعيد ومددت يدي ونزعت الورقة بعنف وكورتها فى يدي وألقيت بها على الأرض والتفت حولى بحثاً عن واحد منهم أبدأ معه المعركة لكن الردهة كانت خالية. دخلت إلى المكتب وصببت لنفسى كوباً من القهوة وأشعلت سيجارة وحاولت أن أقرأ الصحف لكنى عجزت عن التركيز من فرط الإنفعال. كنت أشعر بالمواجهة القادمة وكنت أتعجلها، سوف ألقن هذا البغل درساً لن ينساه. هكذا قلت لنفسى وتخيلت أننى أطرحه أرضاً وأنهال بحذائى ركلاً فى رأسه الأصلع حتى ينسال منه الدم. بعد نصف ساعة سمعت وقع أقدام فى الردهة ولم يلبث أن ظهر الدكتور على باب الحجرة ووراءه عبد العليم. نظر سعيد إلى السيجارة فى يدى وقال بصوت عال:

- جرى إيه يا عصام؟! إيه الحكاية؟! مش معقول كده!

- هو إيه اللى مش معقول؟

هكذا سألت بصوت يرتجف بالإنفعال.

وعلا صوت الدكتور سعيد أكثر:

- يا أخى إذا بُليتم فاستتروا. هو أنت مش مسلم والا إيه؟!

- لأ

- إيه

هكذا قال سعيد بدهشة.

- إنت مش بتسألنى إذا كنت مسلم! أدينى باقولك لأ. أنا مش مسلم.

- أمال أنت إيه؟

- وأنت مالك.

لحظة من الصمت ثم اقترب سعيد خطوات ودوى صوته بالغضب:

- لا .. إنت زودتها قوى! اسمع يا جدع أنت أنا مش عايز أقبح معاك علشان الشهر الكريم ده إنما خللى بالك! إنت بتكلم مدير إدارتك فاهم والا لأ.

كان جسدى يرتجف من الغضب ولم أتكلم ووقفت فى مكانى أحدق فى وجهه بحنق وابتسم هو ساخراً وأشار بإصبعه وقال :

- وبعدين تقدر تقولى واحد قدك.. مش قادر يصوم ليه...؟!

- لازم عنده عذر يا دكتور!

هكذا هتف أحد الموظفين ساخراً وكانوا قد تجمعوا وراء الدكتور وتعالت بعض الضحكات فأفقدنى الغضب صوابى. وجدتنى أضرب الترموس بيدى فسقط على الأرض محدثاً دوياً هائلاً وانفتح غطاؤه وسالت القهوة على أرض الغرفة. تراجع الموظفون خطوات وأصابهم وجوم وصحت أنا بكل غضبى:

- بتتريقوا علىّ يا جهلة أنتم مش فاهمين حاجة.

استغرقتهم صيحتى لحظة ثم هتف نفس الموظف واسمه أحمد جوده:

- لا إنت اللى فاهم يا عبقري!

ضحك بعض الواقفين وصفق جودة بيديه وقال بصوت ماجن ممطوط «عبقرينوو». فاشتد الضحك الصاخب وصحت فيهم وغاب صوتى فى الضجة:

- اضحكوا ! اضحكوا ! أنا قريت عن الإسلام أكثر منكم.

لم يستمعوا إلىّ واستمر الضحك وبدا لى أن منظرى وأنا أصيح يزيد من ضحكهم فتأجج غيظى وصرخت فيهم:

- ياجهلة يا رعاع

توقف الضحك فى الحال وسرت همهمات وهتف الدكتور وهو يقترب منى:

- إخرس.

- إنت اللى تخرس يا حيوان! إنتم شوية رعاع ولا فاهمين أى حاجة!

أخذوا. ران الصمت لحظة وفجأة اندفع عبد العليم ناحيتى وقد رفع يده

وصاح بصوت محشرج:

- يا كافر يا بن الكلب.

لا أذكر بعد ذلك إلا خيالات مشوشة، هجمت على عبد العليم وصفعته علي وجهه لكن يدى طاشت وأصابت رقبته وأمسك هو بى من قميصى وأخذ يشتمنى وفصل الموظفون بيننا وجذبونى بالقوة خارج الغرفة وصوت الدكتور سعيد الأجش يلاحقنى:

- ده شيوعى يا ناس. شيوعى. أنا قلبى كان حاسس من الأول. حولوه للتحقيق فوراً.

(٥)

تبدو قطرة الماء نقية شفافة كبللورة فإذا ما كبرتها العدسات ظهرت فيها آلاف الشوائب ويظل القمر جميلاً صافياً ما دام بعيداً فإذا ما اقتربت بدا لك كشاطئ قذر مهجور. حتى وجه التي تحب، بشرتها الغضة المتوردة التى تأخذ قلبك، ما أن تضاعف قدرتك على رؤيتها حتى تتبدى لك كنسيج قبيح مجعد. فى كل مرة تتأكد الحقيقة. ليس إعجابنا بالجمال إلا خداعاً للنظر وكلما اتسعت الرؤية بانت التجاعيد.

(٦)

بيتنا. طراز الأربعينات. الأسقف الشاهقة المزدانة بالنقوش وبلاط الأرض العريض ذو مربعات صغيرة ذهبت بألوانها الأقدام، والأثاث الخشبى الرصين له رائحة عتيقة وأغطية المقاعد والمفارش، القدم أحال لونها وجعلها تهترئ فى أكثر من موضع. بيتنا حجرات واسعة فسيحة ترن فى أرجائها الأصوات وشرفات كبيرة على الشارع وأخرى ضيقة جانبية وحمام كبير للسادة وآخر

صغير منزوٍ للخدم والطوارئ ومدخلان منفصلان واحد للأسرة وآخر إلى حجرة الجلوس حيث جعل أبى مرسمه. بيتنا كل جزء يشى بحياة قديمة حافلة تشارف الآن نهايتها. بعد موت أبى انتقلت إلى مرسمه أبقيت كل شئ على حاله: اللوحات المكدسة بجوار الحائط وعلب الألوان ولوحة الرسم والمقعد الصغير المستدير ومجلس الأصدقاء، والشلت الصغيرة والحصير حتى الجوزة والمنقد وأكياس الفحم تركتها فى أماكنها. فقط فى ركن الحجرة البعيد أفسحت لنفسى مكاناً ونصبت سريراً «سفرى» أنام عليه. قبل أن أغمض عينى كل ليلة أجول بنظرى فى المرسم. هذا مكان أبى. وأشعر بوجوده على نحو مبهم لكنه مؤكد. أنام بجوار أشيائه لأحرسها. عندما يرجع يوماً سأطمئن وأعود لحجرتى القديمة. فى داخل الشقة تنام أمى المريضة فى حجرة وفى حجرة أخرى جدتى التى جاوزت التسعين وفى الممر بين الحجرتين تفرش الخادمة «هدى» وتحتضن رضيعتها وتنام. هدى تزوجت من سباك سافر للعمل فى العراق من عامين وانقطعت أخباره فعادت إلى بيتنا تخدمنا. وخالى الأخ الوحيد لأمى قضى عشرة أعوام فى السعودية ولذلك فهو ينفق علينا جميعاً أنا وأمى وجدتى وهدى وابنتها. نحن أسرة مترابطة على الطريقة القديمة لكننى اقتربت ورأيت.

●●●

عدت يوماً من المصلحة فوجدت أمى واجمة قلقة وألححت فى سؤالها فبكت وقالت إنها خائفة ولم توضح، أشارت إلى هدى من ورائها وانتحت بى فى المطبخ وأخبرتنى بأن أمى خائفة لأن صدرها متورم، والورم ظهر من شهور لكن أمى قررت ألا تخبر أحداً وحاولت أن تعالج الأمر بنفسها. جربت كل شئ. دهنت صدرها بالعجين، وضعت عليه اللبخة وضمدته بالماء والسكر حتى حبوب منع الحمل أخذتها أمى بعد نصيحة من جارة، وفى النهاية لما

فشلت الوسائل قررت أمى أن تتجاهل ورمها، أن تتكلم وتضحك وتغضب وتعيش وكأنه لا يوجد ورم، أمل ضعيف باهت كان يحدثها بأنها ستستيقظ ذات صباح فتكتشف أن الورم اختفى فجأة كما ظهر ولكن عبثاً إنما يجئ الورم ليبقى ويغزو وينتشر ولما وصل الورم إلى رقبة أمى وبدت منتفخة تغطيها خيوط زرقاء بات مستحيلاً إخفاؤه أو تجاهله، وفى المساء كانت عيادة الدكتور مزدحمة بالمرضى وذويهم. من نظرة واحدة كنت أميز المريض من أهله، ليس فقط شحوبه واعيائه بل من نظرته، نظرة غائبة وكأن غمامة تغشاها، وكأنهم حين ينظرون إليك يتطلعون إلى شئ ما خلفك لا تراه، شئ غامض لا ينكشف للرؤية إلا قبيل الموت.

الدكتور أستاذ فى علاج الأورام ومع ذلك فهو عميد فى القوات المسلحة ومتدين، تتوسط جبهته علامة داكنة من أثر السجود وفوق رأسه على الحائط آية الكرسى مذهبة وجميلة وبعدما فحص أمى بعناية عاد إلى مكتبه بدأ حديثه بالبسملة ثم قال وهو يطأطئ رأسه لكيلا تلتقى عيناه بعين أمى:

- يا حاجة أنت مؤمنة بالله وقد قال تعالى فى كتابه الكريم: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» صدق الله العظيم. يؤسفنى أن أقول لك أنك مصابة بأورام خبيثة منتشرة. النوع ده نسميه أورام الدرجة الرابعة وهى للأسف غير قابلة للجراحة، إنما أملنا فى العلاج بالكيماويات كبير وأملنا فى الله سبحانه وتعالى أكبر.

كان أساتذتى فى الكلية يجرون تجاربهم على الفئران بعد قتلها، وكان الفأر الذى يحين دوره، تمتد إليه فى القفص يد الأستاذ الضخمة المغلفة فى القفاز الأبيض لتمسك به، ويسعى الفأر بضراوة للإفلات من القبضة وعندما يفشل فى النهاية وتحكم اليد قبضتها وتخرجه من القفص لتقتله، كان الفأر

يصدر صريراً متقطعاً ويسيل برازه رغماً عنه. صرخت أمى فى عيادة الطبيب ولطمت وجهها وارتمت على الأرض وتمكنت أنا والطبيب من تهدئتها بعد جهد، كتب هو قائمة بالتحاليل والأدوية وانصرفت أنا معها فى تاكسى إلى البيت. فى الطريق لم أتكلم. لذت بالصمت وأدركت من بريق لمحته على وجهها فى الظلام ومن نشجة أفلتت أنها تبكى، وما أن وصلنا البيت حتى اتصلت أمى بخالى عباس وارتسم على وجهها وهى تخبره تعبير من الجزع لم يفارقها بعد ذلك.

مرت شهور من العلاج وهزل جسد أمى وضمر ثدياها تماماً وصار لون جلدها داكناً وسقط شعر رأسها لكن عينيها لم يفارقهما الجزع لحظة. تملكها توجس لا يهدأ وسيطرت عليها فكرة واحدة: أن تدفع عنها الموت بأي ثمن. أن تفلت من القبضة المحدقة وتعيش. قرأت مرة أن الفيلة إذا شعرت بالموت مشت على قدميها إلى مكان تختاره ليكون المقبرة. هناك. تقف الفيلة تنتظر نهايتها فى هدوء. ما أنبل أن تكون شجاعاً فلا تجزع. أنا ابن أمى الوحيد وهى تحبنى أعرف، وأعرف أيضاً أنها لو خيرت بين موتى وشفائها التام لاختارت أن أموت بلا تردد، وليحزنها موتى بعد ذلك ما شاء وهى صحيحة معافاة.

إن ذعر أمى من الموت لم يترك لها ما تهتم به. عندما يأتى خالى عباس لزيارتنا تزيد أمى فى إظهار ضعفها وعجزها وتتملقه وتدعو له بحرارة أن يوسع الله رزقه ويحفظ أولاده وتمسح بيديها على صدره فى شوق كاذب وتصيح غاضبة فى وجهى - إذ ما تكون قيمتى حينئذ- لأننى نسيت الشباك مفتوحاً والهواء البارد سيؤذى خالى، وعندما يهم بالانصراف تجهش أمى بالبكاء وتقول له أنها تخاف أن يقسو قلبه عليها يوماً من «زن» أولاد الحرام- تقصد زوجته- وعندئذ يبتسم خالى وينحنى ليقبل

جبينها ويخرج من جيبه ظرف النقود الذى أعده من قبل ثم يهمس لها بقلق وهو يدس الظرف تحت الوسادة:

- والنبى وحياتك بلاش تجيبى سيره لحكمت مراتى أنى بازورك لحسن أنت عارفة دى كبرت وبقت خلقية وأنا مش ناقص مشاكل.

●●●

أضاجع هدى الخادمة. تظل الرغبة تنهشنى. تقوض أعصابى لدرجة أنسى معها رائحة العرق المنبعثة من جسمها ويديها الخشنتين الغليظتين وأظافر قدميها المشققة البنية القبيحة. أناديها فتدرك من نبرتى ما أريده وتدخل الحجرة وتغلق الباب وتنتظر صامتة، لا تنظر إلىّ، وأنقض وأحتويها بين ذراعى ويجرى كل شئ بغير كلمة وبسرعة، أكون متلهفاً على إنهاء اللحظة وبعدما نفرغ تفلت هى وتلملم ثيابها ويسرى إلىّ شعور بالخواء وتعاودنى تفاصيل اللقاء وقد ذهب عنها صخب اللذة فأحس بنفس التقزز الذي كان ينتابنى أيام الكلية حين ألمس بيدي بطن الضفدعة اللزج المغطى بالإفراز وأحاول أن أطرد كل ذلك بحمام ساخن.

فى بداية علاقتنا كنت أحرص على التأكد من أن أمى نائمة قبل أن أدعو هدى لحجرتى. مع الوقت لم أعد أعبأ. أمى تعرف ما بيننا ولا تهتم. على الأقل لا تجرؤ على الاعتراض لأنها تحتاج هدى كل دقيقة. هى التى تطعمها وتغسل جسدها وتغير ثيابها وتذهب بها لدورة المياه وتحفظ- عن ظهر قلب- مواعيد الأدوية وأنواعها.

بعد لقاء مع هدى. أخرج فأجد أمى جالسة فى السرير منتبهة، تبادرنى دائماً بحديث أو سؤال تنفى به معرفتها بما حدث فى حجرتى منذ قليل. وعندما أشكو أحياناً إلى أمى من إهمال هدى لشئونى، وألوح بأننى أفكر فى الإستغناء عنها، تنظر إلىّ أمى بعينين مذعورتين وتقول:

- ولا يهمك! حابعتهالك النهارده تنظف حجرتك.

أكون واثقاً أنها تقصد أنها ستبعث بها لأضاجعها. لا تتخيل أمى حياتها بغير هدى ويفزعها خاطر أن يغضبها أحد فتترك البيت وتود لو أنها تركت كل شئ وجلست أمامها طيلة الليل والنهار، تخاف أمى وترتعد من فكرة أن تحتاج يوماً لهدى فلا تجدها، وعندما تضطر هدى لإهمالها من أجل ابنتها الرضيعة «كوثر»، حين تذهب لترضع ابنتها أو تغير ملابسها أشعر بسخط أمى البالغ على الموقف، مرضت كوثر يوماً وارتفعت حرارتها فأعطيت أنا عشرة جنيهات لهدى لتذهب بكوثر إلى الطبيب لكن أمى اعترضت، وراحت تهون الأمر وتؤكد أن الأطفال كثيراً ما يسخنون وتزول السخونة وحدها بغير علاج أو ضرر، وكادت هدى أن تقتنع بعدم جدوى الطبيب لولا إصرارى، وأخيراً عندما خرجت هدى بابنتها وصرنا أنا وأمى وحدنا، نهرتنى لأننى ألححت على موضوع الطبيب وأجبتها بأن الأطفال يحتاجون إلى عناية وأن السخونة ربما تكون عرضاً لمرض خطير وسهمت أمى لحظة ووضعت إصبعها فى فمها- وهذه عادة اكتسبتها مع المرض- ثم نظرت إلى وقد بان على وجهها تعبير شرير مذعور وهمست:

- يا سلام يا عصام. لو ربنا يخلص هدى من البنت دى. تبقى فعلاً متفرغة لخدمتى.

دمدمت مستنكراً وأنا لا أصدق لكن أمى أشاحت بوجهها بعيداً ولوحت بيدها وقالت مهونة:

- وإيه يعنى؟! يا ما عيال بتموت. واحدة تروح مع اللى راحوا.

●●●

قدر لهدى التى ألقى بها شخص وهى رضيعة أمام باب ملجأ للأيتام،

التي التقطتها وهى طفلة سيدة من الإسكندرية أخذتها خادمة فى بيتها وتعودت لأقل خطأ أو إهمال أن تكوى ذراعيها وصدرها بملعقة محمية فى النار، التى ترك الشقاء المبكر على وجهها أثراً يجعلها تبدو فى توهج اللذة ككلب ضال يلتهم طعاماً مفاجئاً بمزيج من اللهفة وعدم التصديق، قدر لهدى أن تسيطر علينا جميعاً، أنا وأمى وجدتى. تقبض على إرادتنا بأصابعها وتضغط، أحياناً أغضب عليها- ويكون ذلك بعد لقائى بها وإشباعى- وأصيح فيها موبخاً كما يفعل السيد بخادمته، عندئذ، تقتل غضبى بنظرة واحدة منها فأسعى لإفهامها خطأها بهدوء. تقول لى نظرتها «هل نسيت؟» وربما جعلتنى أندم على غضبى أسبوعاً كاملاً أو اثنين، أناديها لحجرتى فتدخل وتغلق الباب وتقف وأهم بها فتدفعنى بحزم وتخرج بخطوة هادئة قاتلة، تؤجج رغبتى وتتركنى، طال رفضها مرة أكثر من شهر فتوسلت إليها أن تسمح، توسلت. عندئذ نظرت إلىّ مليا لتسجل مرة أخيرة انتصارها علىّ وتركت لى جسدها بعد ذلك. فى الليل تنادى أمى هدى لتذهب بها للحمام، يحدث هذا مرتين أو ثلاثة فى الليلة، وأحياناً تتظاهر هدى بأنها نائمة لا تسمع، وتستمر أمى فى النداء، تحبس بوها وتتألم وتنادى، وعندما تتوسل أمى باكية فى النهاية، تنهض هدى حينئذ من رقدتها فى تمهل الإله وتأخذ أمى إلى الحمام، لا تجرؤ أمى برغم دموعها على لومها بل تلقاها بوابل من الدعوات. بقيت جدتى ذات الثمانين وهذه تزجرها هدى بعنف أمام الجميع وعادة ما تشترك أمى معها، إذا بلغت الثمانين فلن يحبك أحد لأن العواطف الطيبة لها أيضاً عمر تذبل آخره وتذوى، ولأن بقاءك إذا فاق التوقع فإنه يستفز الآخرين على نحو ما. لا شك أن أمى وخالى عباس كانا من عشرين أو ثلاثين عاماً يحبان جدتى كثيراً ويفكران رغماً عنهما فى اليوم الذى تموت فيه وكيف أنهما سيحزنان طويلاً حينئذ، لكن اليوم الذى

سيحزنهما تأخر حتى أنهما شعرا بدنوهما من النهاية بينما جدتى قابعة لا يزحزحها الموت.

وقد كان ردهما على هذه الحقيقة غير المريحة هو التجاهل، التجاهل عقاب فرضاه على جدتى لأنها استمرت إلى الآن، يجلس خالى عباس مع أمى طويلاً يتحدث ويضحك ويشرب الشاى ولا يلتفت مرة ناحية جدتى الراقدة فى نفس الحجرة، يفقد شعوره بوجودها تماماً، وتظل جدتى وسط الضحك والكلام مستلقية على السرير، صامتة. تحدق فى السقف بنظارتها المعوجة وعينيها اللتين زحف إليهما بياض الشيخوخة، قد تطول رقدتها بالساعات وأحياناً تفعل شيئاً فجأة، تسأل الحاضرين سؤال ينم عن ضعف تركيزها وذهنها المشتت، نكون فى عز الحر وتطلب جدتى من أمى أن تغطيها ببطانية لأنها تشعر بالبرد، أحياناً تخاطب خالى عباس على أنه هدى، أحياناً تسعى للنزول من السرير فتعجز وتحاول وحدها حتى تكاد تقع على الأرض، عندئذ لابد لأحد أن يهب لمساعدتها، يكون هدف جدتى العجوز هو إشاعة القلق وإفساد الجو الذى انعقد بدونها. تذكر الحاضرين بأنها عجوز ضعيفة تحتاج لرعاية لا تتوفر لها بسبب جحودهم. من شهور بدأت جدتى فى التبول على نفسها وأحضر خالى طبيباً لحل هذه المشكلة الجديدة. وفحص الطبيب جدتى وخرج ورأيت فى وجهه أنه لا يفهم شيئاً وقال لخالى بعدما تنهد «أعراض شيخوخة. ليس لها علاج» ثم وصف دواء توضع منه كل ليلة سبع نقاط بالقطارة قبل أن تعطى هدى الدواء للجدة صاحت أمى بعنف:

– ما تحطيش سبع نقاط. حطى لها عشرة ولا اتناشر. خليها تبطل القرف بتاعها ده.

إن الأوقات التى تتخيرها جدتى لتتبول على نفسها تكون ملائمة تماماً، أمام زوار أقارب أو غرباء. فى اللحظة التى يعذُب فيها الحديث ويطمئن الحاضرون فى جلستهم، تبول جدتى فجأة فيشيع الجزع والانقباض. شابة من أقاربنا اسمها نادية كانت تزورنا وعندما رأت جدتى تنهض وتمشى بخطى بطيئة إلى وسط الحجرة ثم تقف ويسود السكون ملامحها العجوز ثم تطأطئ رأسها كطفل مذنب وينهمر البول منها فيبلل ثيابها ويسيل على الأرض.

لما رأت نادية ذلك حملقت لحظة وكأنها لا تفهم ثم انخرطت فى بكاء شديد حار واشتعل غضب أمى وهدى على جدتى واختلط صياحهما لكن صوت أمى علا وهى تقول:

– يا شيخة عيب عليك كده. ما قلنالك من الصبح خشى النيلة الحمام.

بين أمى المريضة بالسرطان الشاحبة المذعورة من الموت وجدتى العجوز عداوة مريرة قد تكون نفسها دليلاً على محبة عميقة وحزن بالغ. صراع شرس بائس بالأظافر والأنياب ينشأ بين مسجونين فى زنزانة ضيقة لمدة طويلة بعدما فقدا كل أمل فى الخروج. عندما تنهال أمى على جدتى بالشتائم واللعنات يخيل إلى أن رجفة خفيفة تعترى وجه جدتى العجوز الساكن، جدتى لا شك تغضب لإهانتها وهى أيضاً ترد لأمى قسوتها بإتقان. مرة كانت جدتى وأمى وحيدتين فى البيت وانتهزت جدتى فرصتها. كانت أمى حينئذ قد سقط شعرها كله من أدوية السرطان وكانت تغطى رأسها الأصلع بمنديل كان ينزلق بسهولة فيكشف عن سطح دماغها الأملس الداكن الذي تقشر جلده. قامت جدتى من سريرها بغير مساعدة من أحد وقطعت الممر إلى حجرة أمى بخطوتها الثقيلة البطيئة التى يسمع وقعها بوضوح ولما دخلت إلى الحجرة صرخت فيها أمى:

– عايزة إيه!

لكن جدتى لم ترد واقتربت من أمى وقد بان على وجهها ابتسامة وشغف كذلك الذى يلوح على وجه طفل يقدم على لعبة مثيرة فيها خطورة ومتعة. دنت جدتي حتى حاذت أمى الراقدة ولم تأبه لصياحها الذى تعالى وانحنت عليهاومدت يدها وجذبت المنديل عن رأسها فانكشف عارياً. ونظرت جدتى لأمى وقالت بصوت واضح :

- الله! هو راح فين شعرك؟!

ولما دخلت إليها بعد لحظات كانت أمى تعوى بالبكاء وتصرخ:

ـ إنت إيه اللى معيشك لحد دلوقتى! موتى بقه، موتى وريحينا.

ورأيت جدتى تغادر الحجرة بنفس خطواتها الثقيلة وقد تركت وراءها الزوبعة ولمحت فى تلك اللحظة على وجهها العجوز علامة رضا وراحة.

(٧)

أنا اقتربت ورأيت ولست نادماً ولا سعيداً، كيف تشعر حين تتأمل ملامحك فى المرآة؟! بعض الدهشة من تفاصيل وجهك التى تراها عن قرب لأول مرة، لكن وجهك: أنفك، عينيك، حاجبيك، فمك يتأكد لك مختلفاً عن وجوه الآخرين.

هكذا أشعر بنفسى الآن. أنا أدركت الحقيقة. قبضت عليها بيدى فحُكم على بالوحدة، صارت العزلة قدرى لأننى فهمت، لم يكن تحقيق العزلة سهلاً ولم يجئ سريعاً، سعيت جاهداً. حاولت مرات وفشلت حتى انتصرت فى محاولة أخيرة وانعزلت ، تكّون لى جدار صارم شفاف لا يسمح إلا بالرؤية، وإنسحبت إلى حدودى وتملكنى هدوء العالم الذى يخلط المحاليل فى أنابيب الاختبار ويرقب نتيجة التفاعل ليسجلها بدقة وحياد فى دفتره الصغير.

لست الآن مع أى شئ أو ضده. أنا وحيد تماماً وتغمرنى الوحدة بالرضا والارتياح. لم أعد اهتم بإثبات تفوقي أو إشعار الآخرين بدناءتهم. ولّى زمن المشاحنات والمشاكل. أستيقظ كل صباح فأحمل كتبى وأذهب إلى المصلحة وأمضى اليوم وكأننى فى مكتبى الخاص. أضع جدولاً لقراءات اليوم وأنفذه، وأبدأ بالجرائد ثم إحدى المجلات ثم فصلاً من نيتشه أو «شبنجلر» وقد أختم اليوم بشكسبير أو رواية عربية، نادراً ما يتحدث إلى الموظفون. بعد مشاجرتى مع الدكتور السعيد أدركوا أننى مخلوق خاص والتعامل معى يرهقهم لأنه يدفع بهم إلى أنماط من التفكير غير مألوفة ومؤلمة، ومن ثم فقد اتخذوا بشأنى قراراً جماعياً صامتاً، أن يستأنفوا حياتهم التى يعرفونها ويتركونى وحيداً فى ركنى المظلم الغامض. يتذكروننى أحياناً عندما تلد موظفة أو يتزوج موظف ويكتتب الزملاء لشراء هدية، يبعثون إلىّ بعبد العليم الفراش الذى صار يحذثنى بكل أدب ويخيل إليّ أحياناً عندما أسدد إليه نظرتى أن رعدة خفيفة تعترى وجهه وأنه يتوقع فى أي لحظة أن أثور وأقذفه بشئ، أكتم ابتسامتى لهذا الخاطر وأدفع المبلغ المطلوب دون ما كلمة وأعاود القراءة، العزلة نعمتى أحفظها بإصرار، إذا ما خيم الليل دلفت إلى مرسم أبى وأغلقت على نفسى، قد أقضى أياماً لا أرى أمى ولا يهمنى ما يجرى فى البيت، حتى هدى لم أعد أشتهيها إلا نادراً، الرغبة الحارة مشاركة فى حياة انسحبت منها، فى مرسم أبى صنعت لنفسى عالمى الآخر الجميل العادل، أفر إليه كل ليلة كطفل مفزع يلوذ بصدر أمه، يستنشق بلهفة رائحتها الطيبة ويشكو ويبكى حتى يسكن ويطمئن وينام، عالمى الجميل تلفه غيمة الحشيش كما تلف الوردة أوراقها، الحشيش سلطان عادل، يمنحك ما تستحق، لكل ذى حق حقه، البسطاء يغدق عليهم الحشيش البهجة الضاحكة، أما من يفكر، من يعرف السلطان عنه حبه للحقيقة فهو يأخذ

بيده، يقربه إليه ويكشف له الأسرار. عندما تلذع حلقى نكهة الحشيش ويدب التأثير أجوب الآفاق وأتعلم، الحقيقة واحدة أزلية تتولد عنها الأشكال المختلفة المتناثرة التى تربطها خيوط واهية لا ترى عن بعد. اقرأ عن هاملت وعلى بن أبى طالب وسقراط، إيفابيرون وجيهان السادات وعائشة بنت أبى بكر، روما القديمة وبغداد ونيويورك، اقرأ ما شئت واقترب وحدِّق تتبدى لك خيوط الترابط وتكشف لك الحقيقة عن وحدة رائعة. من حين لآخر أتناول الإفطار مع أمى، أتأملها وهى تلعق بنهم حيوانى أربع ملاعق من عسل النحل ثم تزدرد كوباً من اللبن وتأكل طبقاً من البيض، تحدثنى أمى عن أخطاء الأطباء فى التشخيص وتؤكد أن أجدادنا لم يعرفوا المرض لأنهم كانوا يتغذون جيداً ثم تبتسم فى توسل وتقول:

- تعرف يا عصام! أنا مش مصدقة ولا حرف من كلام الدكتور ! أنا ما عنديش سرطان وحاعيش لغاية لما ادفنه ابن الكلب.

ثم تضحك بشدة وترقب وجهى بنصف عين، أدرك حينئذ أننى لو اعترضت عليها أو بان علىّ الحزن أو حتى ابتسمت فى إشفاق، فإننى أقطع بذلك خيطاً رفيعاً لا زال يربطها بأمل مبهم. أرقب ضحكها فى صمت وأسجل فى ذهنى بحروف كبيرة: أن حرصنا الذليل على الحياة شئ دنئ حقاً. تصوروا موظفاً نشيطاً كفئاً محباً لعمله، يتقاضى راتباً قدره مائة جنيه، لم يهمل عمله يوماً ولا صدرت عنه أقل هفوة، لكنه ذات صباح يفاجأ برئيسه- بغير ما سبب إلا رغبته فى ذلك- يخفض مرتبه إلى عشرة جنيهات فقط، كيف تسمون هذا الموظف إن لم يترك العمل، ألا يكون دنيئاً لو أنه استمر فى العمل بعشرة جنيهات وتظاهر أمام رئيسه بالرضا والسعادة.

لو أن أمى رفعت المنديل أمام المرآة وتأملت رأسها ووجهها الشاحب المنهك ثم وضعت أمامها صورة قديمة لها أيام الشعر المصفف الجميل والبسمة المشرقة. أيام السعادة. لو أنها مرة قارنت بين الصورتين وسألت لماذا؟ لأمكنها حينئذ أن ترفض. أن تحتج. ضعفها ليس عذراً لأنها برغم الضعف تستطيع دائماً أن تضع حداً لظلم فادح ومجنون. نفثة واحدة من الشجاعة. نفثة واحدة ويرفض الموظف أن يعمل بمرتب أقل وتنتظر الفيلة نهايتها وبأبى عمر مكرم أن يفتدى حياته بجزية يدفعها إلى أعدائه الفرنسيين فيمضى إلى الموت هادئاً نبيلاً منتصراً ويحكم الأثينيون الجهال على سقراط بالإعدام وليلة التنفيذ يتسلل إليه افلاطون حاملاً إليه خطة للهرب، ويستمع المعلم لتلميذه المتحمس حتى يفرغ ثم يرفض الهرب ويسأل أفلاطون مذهولاً عن السبب فيبتسم سقراط بحزن ويجيب:

- لقد أدرت ظهرى لهذا العالم الدنئ.

●●●

النهاية. كنت جالساً على مقعد الحلاق. الحلاق كما هى العادة لزج وفضولى وثرثار ويكرهنى لأننى ترددت على دكانه عامين كاملين ولم أمكنه من معرفة شئ عنى. فقط اسمى الأول. طالما جهد وألح ليجرنى للحديث معه لكننى قاومته حتى يئس ،وصار يقص شعرى بغير ما كلمة، كان الصمت يرهقه أحياناً فيحدث الزبائن الآخرين وأظل أنا مطرقاً اقرأ. فى ذلك اليوم نسيت أن أحضر معى كتاباً أقرأه. كان لا بد أن أقرأ شيئاً فالتفت إلى المجلات المصفوفة على رف المرآة أمامى. أعداد من مجلة فرنسية اسمها «فن الديكور». أنا لا يهمنى الديكور لكنى جذبت عدداً من المجلة وبدأت أتصفح بعض الموضوعات الخاصة بالديكور. صور كثيرة لأثاث طرازاته مختلفة، عبرت الصفحات بسرعة واستبدلت المجلة بأخرى، فى الصفحة

الأولى من المجلة الثانية رأيتها، صورة توقفت أمامها وشدتنى، لا زلت أذكرها بوضوح. كانت صورة لغرفة نوم من الطراز الحديث، سرير عريض منخفض قريب إلى الأرض مغطى بملاءة حريرية سوداء. على الحائط لوحة كبيرة تمثل أنفاً كبيراً صلباً تحيطه ظلال كثيرة متداخلة ملونة بتنويعات بين الأبيض والأسود، كانت أرضية الغرفة مغطاة تماماً بالفرو الأبيض وبدا تداخل الأبيض والأسود رائعاً، تأملت الصورة فانبعث داخلى إحساس جميل أدهشنى، لم يلبث أن تحول إلى حب جارف. مرت دقائق وأنا أتذوق الجمال فى الصورة. جربت أن أقلب الصفحة، أنظر إلى صورة أخرى، لكنى عجزت بعد لحظة، عدت إلى صورتى الأولى وبعدما فرغت من الحلاقة قلت للحلاق وأنا أنقده أجره:

- ممكن أحتفظ بالمجلة؟

وافق فوراً وتهلل لأن فرصة للتدخل فى شئونى قد سنحت واندفع فى ثرثرة طويلة عن الديكور الفرنسى ورقته ولم يلبث أن سأل:

- حضرتك عاوز المجلة عشان البيت الجديد؟ ألف مبروك يا أستاذ عصام.

تخلصت من الحلاق وتأبطت المجلة وأخذت تاكسى إلى البيت. كنت متلهفاً. مراهق يحمل فى جيبه صورة امرأة عارية ويندفع إلى حجرته، يغلق على نفسه ويخرج الصورة وهو يلهث بالرغبة يغيب ساعات فى لذة عارمة وكأنها حقيقة. قضيت الليل أدخن الحشيش وأتأمل الصورة. كل جزء منها كان يبعث فى داخلى جمالاً مختلفاً: الأنف فى بروز اللوحة. غطاء السرير المجعد، الأرضية البيضاء. نهلت من الجمال حتى شبعت. ولما استلقيت على السرير لأنام كان نور الفجر يتسرب من فتحات الشيش وكنت أدرك أنى بدأت تجربة مفعمة غريبة.

فى اليوم التالى خرجت من المصلحة ولم أرجع إلى البيت. وذهبت إلى ميدان سليمان، إلى محل الصحف الكبير، ابتسم البائع فبانت أسنانه الذهبية وأشار إلى ركن المحل وقال:

- إلى اليمين المجلات الأجنبية الجديدة وعلى شمالك «القديم» بربع الثمن. لم ألتفت إلى المجلات القديمة، كان تصورى لمجلة أجنبية متربة أو مهترئة يضايقنى. وقفت طويلاً ، تصفحت وتأملت وقارنت وانصرفت فى النهاية وقد اشتريت مجلتين : واحدة فرنسية (مع أنى لا أعرف الفرنسية)، وأخرى أمريكية.

●●●

انقضت الليلة كالبارحة. الصمت والحشيش والصور والأحلام. حاولت أن أقرأ موضوعاً سياسياً فى المجلة الأمريكية لكنى سئمت وتوقفت. الصور وحدها تجذبنى. كل شئ فى الصورة يبدو رائعاً حتى أصغر الأشياء لها رونقها الخافت. حياة زاخرة متنوعة وزاهية. الشوارع والمبانى والناس حتى الأمطار والثلوج والشطآن. فنانون يطلقون لحاهم ويقفون أمام لوحاتهم، موسيقيون بثيابهم السوداء الكاملة يجلسون أمام آلاتهم ونوتهم، حتى المظاهرات رائعة، مئات الأشخاص يسيرون فى ميدان واسع نظيف، وجوههم بيضاء وشعرهم أشقر، يحملون لافتات احتجاج ويتقدمون فى صمت، رجال البوليس بأجسادهم القوية وزيهم الأنيق وشاراتهم اللامعة يحيطون بالمظاهرة، يحمونها ، قد يخطب فى المتظاهرين أحد السياسيين، يكون وقوراً وعادة ما تكون له نظارة إطارها ذهبى أو فضى أنيق، انتهيت من المجلتين وفى اليوم التالى اشتريت غيرهما ، ثم غيرهما ، يوماً بعد يوم انسحرت تماماً، انزلقت إلى آخر المدى، وبرغم سعادتى بمشترواتى اليومية ضبطت بائع الجرائد أكثر من مرة وهو يتأملنى بشك وقلق وأنا أقلب فى المجلات، ويبدو

أنه لا حظ أننى أتطلع كثيراً إلى الصور لأنه اقترب منى مرة وقال:

- عندنا جوة «بوستر» يعجبك! تحب تشوفه؟!

لم أكن أعرف معنى «بوستر» لكنى لما دخلت وراءه أدركت أن «البوستر» هو صورة كبيرة ملونة تغطى الحائط. عددت ما معى من النقود فلم يكفِ، لم أشتر وذهبت واقترضت من أمى وعدت وحملت معى إلى البيت أربعة «بوستر» كبيرة، ساعدتنى هدى حتى غطيت بهم حوائط غرفتى الأربعة، كان لا بد أن أكدس كل لوحات أبى فى الركن لأفسح مكاناً للبوستر، لم أشعر بأسف أو ندم، حجرتى الكئيبة باتت تتألق بالبهجة، وأنا راقد على سريرى أرى على الحائط بيتاً ريفياً سقفه معكوف تحوطه حديقة صغيرة يحدها سور قصير من ألواح الخشب البيضاء وفى الخلفية البعيدة غابة كثيفة من أشجار «السابان» الطويلة، الوقت شتاء، الجليد يغطى الأرض وعلى الأشجار وسقف البيت تتساقط كريات ثلجية هشة صغيرة.

ماذا يحدث لى؟ لست مراهقاً. أنا فى الخامسة والثلاثين. ولّى زمن الاندفاعات والمشاعر المحمومة. إن تعلقى بالصور الأجنبية يرجع لفكرة ما لابد لى أن أجردها وأفهمها. ما الذى يجعل صورة لمقعد أو سرير تبعث فى نفسى كل هذه البهجة: هل هو جنون؟! للمجانين بالتأكيد منطقهم الخاص لكننا لا نعرف لأن اتصالنا بهم ينقطع حين يتصرفون بشكل مختلف عنا. أيكون الجنون رغبة عاتية كتلك التى تسيطر على الآن؟ أجهدت عقلى فى التفكير لیالٍ عديدة حتى توصلت، انبثقت الرؤية فجأة بوضوح تام. أنا لا أحب الصور. إن ما أحبه هو ما تبعثه الصور فى نفسى. فى الأفراح والأعياد ترتدى الفلاحات المصريات ملابس مزركشة، ألوانها زاعقة متنافرة ويصبغن أيديهن وأرجلهن بالحناء، ثم يستأجرن عربة كارو يجرها حمار

معصوب العينين ويقضين النهار فوق العربة يصفقن ويزغردن وينشدن أغانيهن. إن مشهد الفلاحات على الكارو يبعث فى نفسى شعوراً محدداً، إحساساً «مصرياً» مميزاً وبالمقابل فإن صورة الغابة الكثيفة المغطاة بالثلوج أو الفنان ذى البايب واللحية يبعث فى إحساساً «غربياً»، روح الغرب هو ما يأسرنى فى الصور. بالضبط. إن الروح الغربية تحيط بنا، نراها فى كل شئ لكننا قلما نجردها من مظاهرها، كل ما هو أنيق فى حياتنا غربى بالضرورة! أمثلة؟! معطف الطبيب الأبيض، الأجهزة العلمية وحتى المنزلية، رابطة عنق ممثل سينمائى، سيارة فاخرة حديثة الطراز.. كل شئ. كل ما يعجبنا ينتمي إليهم. لما بلغ تفكيرى هذا الحد من الصفاء خفت أن أنسى ما فهمته أو تطمسه بعد ذلك أفكار أقل أهمية. فأخرجت كراسة من مكتبى ودونت على صفحتها الأولى: «لقد أدركت الآن أننى وقعت أسيراً لروح الغرب، وبقدر ما تأكد لى عدم جدوانا فإن روحهم تتبدى لى زاخرة بإمكانات رائعة».

انفك غموض العشق وكان لابد لشغفى بالصور أن يهدأ. كانت الصور وسيلتى لمعشوقى وربّ وسيلة تدنينى أكثر، لماذا لا أحيا روحهم بدلاً من أن أبحث عنها فى الصور، أعيشها، أتنفسها وألمسها، سأسافر إليهم ، إلى شمسهم وجليدهم ومبانيهم ووجوههم، وإن عجزت عن السفر سأفتش عنها هنا فى مصر، هم يأتون ويجوبون الشوارع وكنت من قبل أراهم كثيراً ولا أتوقف عندهم. من عجب أن ترى الجمال عشرات المرات فتعبره بغير ما تأثر ثم تكتشفه مرة فى لحظة عبقرية وعندئذ يرتجف جسدك بالنشوة الحارقة.

أقضى اليوم فى المصلحة شارد الذهن قلقاً. لا أقرأ ولا أنظر إلى أحد. أرى أحبائى بعين الخيال وأتحرق شوقاً للقياهم. وما أن يحين الانصراف حتى أهرع إليهم. أذهب إلى أماكنهم: الأهرام، المتحف المصرى، قلعة صلاح الدين، كل يوم ألقاهم فى مكان جديد. أتظاهر بالفرجة مثلهم على المكان

وأنا أتابعهم بنظرى. ألتهمهم بعينى وأحتفظ فى ذهنى بتفصيلاتهم: وجوههم وأجسادهم، ضحكاتهم وأصواتهم، ثم أجترها بلذة كل ليلة وأنا أدخن الحشيش: أحياناً أتساءل" ألا يعرف الله أنهم أرقى مخلوقاته؟! هل يعتزم الله أن يعذبهم كما يعذبنا؟ حتى الزانيات منهم واللصوص والقتلة هل يعاقبهم الله بشوى جلودهم البيضاء الجميلة ؟ مستحيل. إن الله لم يخلق هذه الروعة ليحرقها بعد ذلك. وقفت ذات ليلة أمام المرآة وتأملت شعرى الخشن ووجهى الداكن القبيح وتذكرت وجه أمى وأبى كل من أعرفهم وتقززت وأسرعت أدون فى مفكرتى: «نحن الجديرون بالعذاب لإننا مشوهون».

أحياناًأقترض من أمى وأحياناً أسرق من كيس نقودها، ابتعت ملابس جديدة أنيقة أرتدى كل يوم منها وأشترى علبة سجائر مستوردة وأذهب إليهم: مهرجانات الطعام ، والمراكز الثقافية وحفلات الموسيقى الكلاسيكية، كل مكان أعرف بوجودهم فيه أذهب ، وصارت لى مع الوقت خبرة المحبين . بت أعرف أن البيتزا الإيطالية هشة رقيقة، والأمريكية سميكة ومحشوة. نظرة واحدة أميز بها استقامة الألمان ورقة الفرنسيين وحيوية الطليان، الأمريكان طبيعتهم واضحة وبسيطة، كل هذه تنويعات جميلة كألوان زاهية تبدو مختلفة لكنها تختلط فى النهاية ليخرج النور. تلامست أقطاب الحب والمعرفة واكتملت الدائرة فصرت مؤهلاً للترقى خطوة جديدة أدنو بها من ذوبان النشوة.

(٨)

المركز الثقافى الألمانى مبنى صغير أنيق فى شارع صاخب. معرض للتصوير الفوتوغرافى. المصور يقف فى استقبال الرواد، شاب ألمانى فى العشرينات الأولي، لحية صغيرة مدببة وعينان زرقاوتان وشعر مسترسل

كفتاة يربطه فى خصلة تتدلى على ظهره. صافحنى وابتسم مرحباً ودمدمت بكلمات إنجليزية خافتة ودخلت. الزوار ألمان ومصريون. الألمان فى بنطلونات جينز وفانلات رياضية والمصريون متأنقون. روائح عطور ثمينة تختلط وثياب فاخرة جديدة تبرق. تركت اتجاه الحشد وبدأت المعرض من آخره. رحت أتفرج وحدى على الصور. بعض الصور التقطت فى ميونخ بلد المصور، ومعظمها أخذت فى مصر. كل ما يعجب السياح: صورة لعربة كارو محملة بالليمون، أخرى لبائع عرقسوس يتلاعب بالصاجات، أخرى لرجل معمم يشترى بطيخة على السكين، توقفت أمام صورة لمجموعة من الصبية فى ميدان الحسين، أجساد ضامرة ووجوه أشحبها الضعف وقلة الغذاء يقفون حفاة فى جلاليب ممزقة، كانوا يضحكون أمام الكاميرا ورفع أحدهم جلبابه إلى ما فوق الساقين وأحنى جذعه للأمام فى حركة بذيئة.

- هذه الصورة تسئ إلى مصر! أليس كذلك؟

صدر الصوت من خلفى. إنجليزية واضحة ونبرة ودية. التفت ورأيتها. تكون سائراً فى الشارع فى يوم عادى لمناسبة عادية فتفاجئك الكاميرات ويندفع إليك المارة يصافحونك مهنئين لأنك ربحت ثروة ضخمة لمجرد أنك كنت أول من يعبر الشارع هذا الصباح. هكذا كانت دهشتى برؤيتها. عينان زرقاوتان عميقتان لا يمكن أن تلمحهما فيعبرهما نظرك كما يعبر عشرات الوجوه. انجذبت إليهما فتوارى بقية الوجه الجميل فى الخلفية . عينان ليس منهما هرب . نظرت فيهما وتلعثمت ثم قلت بصوت أجش لأخفى اضطرابى:

- لماذا؟! أنا لا أرى فى هذه الصورة ما يسئ!!

اقتربت أكثر واتسعت الابتسامة . أشرقت . قالت:

- أعرف فى مصر أشياء كثيرة جميلة تستأهل التصوير غير الأطفال الحفاة.

أستطيع الآن أن أميز أنفاً صغيراً وشفتين ورديتين مكتنزتين وشعر أصفر ناعماً طويلاً تركته يتهدل فجاوز الكتفين. الجسد ملئ ناضج ومنعت نفسى من تأمل صدرها العامر الشهى وقلت:

- إذا لم تصورى الحفاة والفقراء وأكوام الزبالة فى مصر، فماذا تصورين؟! الأهرام وأبى الهول!!

كنت أسخر ونضحت من نبرتى مرارة فسألتنى فى دهشة

- هل أنت مصرى؟!

- نعم. للأسف.

اتسعت دهشتها ولم ترد. والتفت أنا من جديد إلى الصورة ثم جاوزتها إلى الصورة التالية ووقفت أتفرج وخفق قلبى. ارتج لما سمعت خطواتها ورائى وشعرت بها بجانبى وسمعت صوتها من جديد:

- أمر غريب أن تشعر بالأسف لأنك مصرى. طالما تمنيت أنا منذ الطفولة أن أكون مصرية.

احمر وجهها قليلاً وعبرت عينيها نظرة حالمة. وضحكت أنا وقلت:

- من أى بلد أنت؟!

- أنا ألمانية. لكنى أحب مصر، أعشقها.

- أنت تحبين مصر تماماً كما تحبين عرضاً طريفاً فى السيرك أو حيواناً نادراً فى حديقة الحيوان . لكن صدقينى. أن تولدى مصرية فهذه مأساة.

كان لابد للحديث أن يمتد . أكدت دهشتها من رأيي وقالت انها قضت فى مصر عامين تعرفت خلالهما إلى عشرات المصريين لكنها لم تسمع أحداً يقول هذا الرأى من قبل واندفعت أنا مؤكداً رأيى بحرارة وظلت تستمع إليّ وأرى على وجهها الدهشة وعدم التصديق ،ويدفعني ذلك للتشبث أكثر. أكدت لها أن مصر بلد ميت وأن الحضارات كائن كأى كائن يمر بمرحلة الطفولة والصبا والشباب ثم يشيخ ويموت، وقد ماتت حضارتنا من مئات السنين فلا أمل يرجى فى بعثها قلت لها إن المصريين لهم نفسية الخدم والعبيد ولا يفهمون إلا لغة العصا وحكيت لها حكاية المتنبى عندما جاء إلى مصر وترجمت لها بيته:

لا تشترى العبد إلا والعصا معه

إن العبـــيـــد لأنجاس مناكيـــد

استغرقنا الحوار تماماً فلم نعد نهتم بالصور ولا نشعر بالوقت ووجدتنا فى النهاية نتجه ونحن نتكلم إلى باب الخروج وتوقفتْ، وتوقفتْ وسُددت إلى نظرة عميقة ودودة أصابت قلبى وقالت وهى تبتسم دائماً:

- حقيقة أنا أشكرك على هذا الحوار الممتع. أنا سعيدة لأننى تعرفت إلى رأى أحد المثقفين المصريين فى بلاده. صحيح أنا لا أوافق على رأيك لكنى أحترمه لأنه أصيل ثم ضحكت واستطردت:

- تصور. أنا لا أعرف اسمك إلى الآن؟

وضحكت أنا من قلبى وهى تحاول نطق اسمى وتتعثر وسألتها فأجابت :

- اسمي : «يوتا»

استدارت شفتاها فى دائرة وردية شهية وهى تنطق بالاسم ثم هزت كتفها

وقالت:- مجرد اسم ألمانى. هل يعجبك؟!

هززت رأسى ومدت يدها لتصافحنى وقالت مودعة:

- عصام. سعيدة بلقائك وأرجو أن تتاح لنا الفرصة لنكمل النقاش فيما بعد. ثم استدارت لتنصرف لكننى هتفت فجأة:

- إلى أين تذهبين الآن؟!

- الآن؟!

بدا أنها تفكر فيما وراء السؤال ثم أجابت ببطء:

- ليس لدى شئ معين أفعله.

- نكمل حديثنا إذن فى مكان آخر؟ أنا أدعوك. ههل لديك ما يمنع؟!

وتأملتنى لحظة بجدية ثم هزت رأسها وبعد دقائق كنا نستقل تاكسى وترددت قليلاً ثم قلت للسائق:

- فندق سميراميس.

لست شجاعاً ولا خبيراً بالنساء. وعندما أتذكر الآن ما فعلته مع «يوتا» تدهشنى جرأتى. يخيل إلى أن الذى فعل ذلك شخص آخر . شخص جرئ قادر تسلل داخلى وظل يدفعنى وأنا أقاومه لكنه كان يتغلب على ضعفى يمنحنى قوته. عندما يشب حريق أو يشرف شخص على الغرق أو تحدث مفاجأة مذهلة فإن أتفه الأشخاص فى الحياة العادية قد يتحول فى لحظة إلى مخلوق خارق فيقدم على« أفعال لا يتصور أحد- ولا هو نفسه- أنها كانت يوماً كامنة بإمكانه. أنا دعوت يوتا لمصاحبتى؟! أنا المهزوم تربكنى نظرة البواب ولا أجرؤ على نظرة، مجرد نظرة لوجه امرأة جميلة. جلست بجانبها

فى التاكسى أتأملها، كانت قد عقدت ذراعيها واستدارت تراقب الطريق من النافذة، ترتدى جاكتاً من الجينز الأزرق تحته فانلة سوداء تكشف نحرها الأبيض وبنطلون واسعاً من قماش أبيض خفيف وتضع قدميها الصغيرتين فى حذاء أسود بسيط، شعرها غسلته ولم تمشطه فتشابكت غاباته فى خصلات كثيفة، فى مرآة السيارة لمحت السائق ينظر ويبتسم، التفسير الوحيد لعلاقتى بيوتا فى ذهن السائق هو فحولتى الجنسية، هذا أقصى ما يمكن أن يدركه خادم مثله، شعرت بغيظ مفاجئ من السائق لكنى كظمته وسألتها:

- ماذا تفعلين فى مصر؟

فأجابت ضاحكة:

- أوه. هذه حكاية طويلة. جئت إلى مصر ضمن فوج سياحى فأحببتها لدرجة أفسدت على حياتى بعد ذلك. عندما رجعت لألمانيا بدا لى كل شئ مملاً حتى الموت فعقدت العزم على الاستقرار فى مصر وهاأنذا ...

- هل تعملين ؟!

- نعم. توسط لى صديق مصرى حتى عملت سكرتيرة فى شركة استيراد وتصدير، مرتبى كبير. لكننى كل ستة شهور أضطر لدفع مبلغ باهظ من الدولارات لأجدد إقامتى.

ولعلى سهمت قليلاً لأنها ضحكت فجأة وسألتنى:

- هل تبدو حكايتى غريبة؟

وقلت بعد تردد:

- نعم.

الفندق مزدحم، سقف شاهق وثريات ضخمة ثمينة متشابكة تتدلى وممرات وأضواء وخدم بملابس سوداء كاملة ولما عبرت المدخل مع يوتا سألتنى فأجبت بأنى لا أعرف الفندق فهزت رأسها وصعدت الدرج الرخامى وتبعتها إلى البار وبدا أنها تعرف المكان جيداً. استقبلنا نادل أنيق وقادنا إلى منضدة فى الشرفة تطل على النيل وسألتنى يوتا فى مرح:

- هل يضايقك أن أطلب خمراً؟

فأجبت:

- قد يضايقنى أن تطلبى شيئاً آخر.

عندما تضحك تكشف شفتاها عن أسنان ناصعة صغيرة منتظمة. جاء النادل بزجاجة بيرة لى وكأس «جين» ليوتا وداهمنى القلق لما تذكرت أن كل ما معى ثلاثون جنيهاً لكنى طمأنت نفسى بأنه على الأقل يكفى لزجاجة بيرة وكأس آخر لها. كانت الأضواء تتلألأ من بعيد على الشاطئ الآخر وثمة ريح مسائية باردة تدفع صفحة المياه فتكسرها فى موجات تصدر خريراً خافتاً ورشفت يوتا من كأسها ونظرت إلى النيل وبدت منتشية ثم سألتنى فى نبرة تتأرجح بين اللوم والدعابة:

- هل يستطيع أحد أن يكره بلداً بهذا الجمال؟!

- ثقى أن المناظر الطبيعية فى ألمانيا لا تقل جمالاً لكنها مألوفة لديك وكل مألوف يفقد جماله.

- هذا ليس صحيحاً لأننى بعد عامين لا زال منظر النيل يسحرنى ربما أكثر من الأول ثم تذكر أن ما يعجبنى فى مصر ليس فقط مناظرها.

- ماذا يعجبك أيضاً؟

سألتها ساخراً وكنت قد ثملت قليلاً!

- الناس . أحاسيسهم دافئة وطيبة للغاية.

أطلقت ضحكة عالية حتى أن سيدة فى المنضدة المجاورة التفتت إلى وسألتنى يوتا:

- ماذا يضحكك إلى هذا الحد؟!

- رأيك فى المصريين. عن أية أحاسيس طيبة تتحدثين! المصريون مجرد حشرات سامة. هذا وصفهم العلمى.

- لكنى لم ألحظ ذلك.

- طبعاً لا يمكن أن تلحظيه لأنك أجنبية وامرأة وجميلة! اسمعى. هل يصح أن نعتبر هذا النادل رجلاً طيباً لمجرد أنه يعاملنا بأدب؟ إن معاملته المهذبة للزبائن تفرضها ظروف أقوى منه، وإذا أردت أن تعرفى حقيقته اسألى أحداً من جيرانه أو أسرته.

اعتمدت بذقنها على يديها ونظرت إلى لحظة ثم قالت:

- طريقتك فى الكلام جافة ورؤيتك حانقة لكنها تعجبنى على نحو ما. طلبت كأساً آخر وزجاجة بيرة وألحت علىّ رغبة قوية فى أن أتحدث، أن أحكى، كنت أشفق على يوتا من الملل وكنت أشعر بالحرج من تعرية نفسى أمامها لكنى بعدما سرت إلىّ الخمر دبت فى حمية جعلتنى أندفع فى الحديث بحرارة، قلت لها كل شئ، حكيت لها عن أبى وأمى ومصلحة الكيمياء، حتى هدى الخادمة تحدثت عنها، وظلت يوتا تستمع إلىّ باهتمام،

أحياناً كانت تستوقفنى لتسأل عن تفصيل ما، وأحياناً كنت أنفجر ضاحكاً من فرط المرارة، عندئذ لم تكن تشاركنى الضحك، فقط تنظر إلىّ بعينيها العميقتين وأشعر أنها تفهمنى، عندما فرغت كان البار قد خلا تقريباً وقالت يوتا ببطء وهى تنظر إلى الكأس وهى تديره بين راحتيها:

- عصام. أنا لا أريد أن أعلق على كلامك. أخشى أن يجئ تعليقى سخيفاً أو صبيانياً، لكنى أتذكر الآن فريدريك، صديق ألمانى وهو أول من حدثنى عن مصر. يعمل مهندساً وقضى فى مصر عشرة أعوام. تعرف ماذا قال لى مرة؟! قال إنه زار معظم بلاد العالم وأنه لم ير بلداً يمتلئ بالموهوبين مثل مصر. وإنه يشعر بالأسف لأن الموهوبين فى مصر يواجهون مشاكل كبيرة. قالت ذلك وهى تنظر إلىّ وتهز رأسها ببطء كأنما تؤكد المعنى وخطر لى فى تلك اللحظة أن وجهها يبدو لى فى هيئتين مختلفتين، مرة يكون رقيقاً حالماً فتكون حينئذ إشبه بطفلة رائعة عابثة، وأحياناً أخرى تتغير ملامحها فيكسو وجهها طابع صارم قلت لها:

- نشرب كأساً آخر.

فردت بلطف:

- معذرة. تأخر الوقت ولابد أن أنصرف.

ولما طالعت ورقة الحساب ربما ظهر قلقى لأنها اقتربت برأسها وهمست:

- أستطيع أن أشارك معك.

رفضت شاكراً ودفعت الحساب ونقدت النادل جنيهين بقشيش ونهضنا ونزلنا الدرج فى صمت. كان ثمة سؤال ملح معلقاً وكنت أشعر أنها تدرك ما

يدور برأسي لأننا ما أن خرجنا إلى الشارع حتى بادرت بسرعة ومدت يدها مصافحة وقالت:

- أشكرك كثيراً. كانت سهرة ممتعة حقاً. أرجو أن نلتقي دائماً بعد ذلك هل لديك تليفون في البيت؟

نظرت إليها لحظة ثم قلت فجأة بلهجة قاطعة:

- أنا لن أتركك.

وضحكت وسألت:

- ماذا تقصد؟!

- أنت تفهمين ما أقصد. أنا لا أستطيع أن أتركك. أريد أن أبقى معك. أدهشتني جرأتي من جديد ونظرت يوتا إليّ وكأنها تختبرني وتحول وجهها لطابعه الجدي ثم قالت وكأنها تزن الكلمات:

- عصام. أنصت. في الواقع أنت تعجبني وتثير اهتمامي لدرجة كبيرة. ليس لدي ما يمنع من اصطحابك لبيتي. لكن ذلك سوف يثير مشكلة أنا في غنى عنها.

- ما هي المشكلة؟

هكذا سألت فتنهدت وقالت:

- قبل أن أجئ إلى مصر حذرني فريدريك لأن المصريين لهم تقاليدهم المختلفة. أنت تفهم طبعاً. لكنني تجاهلت التحذير. لم آخذه بجدية. وذات ليلة حاولت أن أستضيف صديقاً في شقتي فأثار ذلك غضب المستر

«شعبان» وكادت أن تحدث فضيحة.

- ومن هو شعبان؟!

- شعبان البقال. دكانه تحت منزلى وهو يسهر إلى ما بعد منتصف الليل وأنا لا أريد أن أعمل مشكلة معه. هو رجل متدين ومتشدد ولا يمكن أن يقبل أن أصطحب رجلاً إلى شقتى هكذا قال لى بوضوح فى أول مرة.

وجدتنى أصيح وقد اشتعل غيظى:

- هل تتركين البقال يتحكم فى حياتك الخاصة؟!

- أرجو أن تفهمنى. أنا لا أريد أن أؤذى مشاعره كما أنى أعرف أن تحدى التقاليد فى مصر قد يؤدى إلى كارثة. هكذا أكد لى فريدريك.

بلغ غيظى مداه وصمت لحظة وجدتنى فجأة أقبض على يدها وأجذبها معى وصاحت:

- عصام.. أنتظر أرجوك! أنا جادة فيما أقول.

لم آبه لصياحها وجذبتها حتى أدخلتها فى سيارة تاكسى كانت تقف أمام الفندق وجلست بجانبها وهمست فى أذنيها بنبرة آمرة:

- اخبرى السائق بالعنوان.

نظرت إلىّ بتردد ثم قالت للسائق بعربية مكسرة:

- مدينة نصر عباس العقاد.

فى الطريق إلى المنزل تحدثنا لكن قلقاً خفياً كان يشد الحوار فينقطع. لم أكن خائفاً. كنت أشعر بقوة دافعة جياشة تسرى فى أوصالى، الخمر سبب لا

شك، لكننى كنت أدرك أنى أعيش أهم لحظات حياتى وعلى أن أمسك بها فى أصابعى وإلا ضاعت للأبد، كنت مستعداً للقاء شعبان، لو اعترض على صعودى مع يوتا سأضربه، سأتناول أى شئ ثقيل من محله وأضربه بقوة على رأسه، لا يهمنى أن أقتله، لن أدع يوتا تفلت منى ولن أسمح لأحد أن يمنعنى عنها.. من هو شعبان؟ بقال متدين، يغش الزبائن ويغالطهم ويصلى الوقت بوقته، دنئ وغبى ومتطفل وحاقد كأى مصرى، سأخاطبه باللغة التى يفهمها، لا تشترى العبد إلا والعصا معه. تعمدت يوتا أن توقف التاكسى قبل البيت بمسافة وبعدما نزلنا وانصرفت السيارة همست بقلق وهى تنظر ناحية البيت:

- محل شعبان مفتوح. سوف تحدث مشاكل.

جذبتها من يدها وتقدمنا ناحية البيت وقلت فى ثقة:

- عندما نصل إلى مدخل البيت تقدمى قبلى واتركينى أنا معه.

كان المحل صغيراً ومكتوباً عليه «بقالة الإيمان» وكان ثمة رجل بدين ملتحى يرتدى جلباباً أبيض يلملم أشياء ويجرر صفائح وبراميل ليدخلها فى المحل، كان شعبان يستعد للغلق وبدا لى من هيئته وأنا أقترب مع يوتا أنه شرس وأن المعركة لن تكون سهلة. وصلنا إلى المدخل وتقدمت يوتا بسرعة إلى داخل البيت وتمهلت أنا أمام المحل ثم توقفت والتفت إلى شعبان الذى كان قد ترك الصفائح واقترب منى وجعل ينظر إلىّ فى تحفز، رمقته بحنق ثم صحت بصوت عال:

- السلام عليكم.

لم يرد. أخذ ينظر إليّ صامتاً وهو يتخلل لحيته بأصابعه. كان يزن الموقف قبل أن يتدخل. عيناه ضيقتان خبيثتان وجبهته العريضة تلطخها بقعة داكنة مستديرة أهذا وجه المؤمن؟! كم يبدو راضياً عن نفسه! لا شك أنه واثق بأنه قد أرضى ربه تماماً. هذه الحيوانات أمقتها. جهل ودناءة وغطرسة. اقتربت منه أكثر حتى وقفت فى مواجهته تماماً. تفصلنا مسافة قصيرة جعلتْ وجهه في مرمى صفعاتي. ثبتُ نظرتى فى عينيه وصحت بصوت متحرش:

- بنقول السلام عليكم:

بدا لحظة وكأنه لا يفهم. ربما فاجأه اقترابى أو ربما شم رائحة الخمر من فمى لأنه فجأة أخفض نظره ودمدم وهو يستدير ويبتعد إلى موقفه الأول:

- وعليكم السلام ورحمة الله. أهلاً.

انكسر شعبان ورجع إلى صفائحه وجعلت أرمقه لحظة حتى تأكد لى أنه استأنف عمله وكأن شيئاً لم يحدث. عندئذ ابتعدت عنه ببطء لئلا يظن بى الضعف فينقلب. كل خطوة كنت أقترب بها من المدخل وكأنها تدوس على رأسه الغبى الضخم. فى المدخل كانت يوتا تنتظر. ظهر عليها السعادة وسألتنى فى مرح ونحن نصعد الدرج إلى شقتها:

- ماذا فعلت معه؟! ألم يعترض؟

ورددت فى زهو وكأن ما حدث أمر عابر:

- لقد عاملته كما ينبغى للمصرى أن يعامل.

انفتح الباب فتلقتنا الشقة برائحة رطبة ومدت يوتا يدها وضغطت مفتاح

النور. صالة فسيحة ومطبخ وحمام وحجرة داخلية تفصلها عن الصالة ردهة طويلة. الأثاث- كالعادة فى الشقق المفروشة- يبدو قديماً ومستعملاً وملفقاً على نحو تشعر به وكأنه ديكور ردئ لإحدى المسرحيات. جلست على أريكة حمراء طويلة وأمامى منضدة رأيت عليها ورقاً متناثراً وأوراق ونقود ومجلة ألمانية مفتوحة. ابتمست يوتا وقالت وقد بان فى صوتها أنها تشعر منذ الآن بإحساس المضيفة:

- ليس لدي ما نشربه سوى زجاجتين من النبيذ الأحمر. ما رأيك؟!

- عظيم.

دخلت إلى المطبخ ثم عادت بعد دقائق بصينية عليها زجاجة نبيذ وكأسان وقالت وهى تصب لى كأساً:

- المفروض أن يشرب النبيذ الأحمر ساخناً لكنى أفضله مثلجاً أرجو ألا يضايقك هذا؟!

- لا بأس .

هكذا قلت وأنا أرشف من كأسى وأتأملها. بدت- وهى تصب النبيذ وشعرها الأصفر الطويل ينسدل على عينيها فترفعه بجانب يدها الرقيقة الرائعة- وكأنها جزء من حلم وردى أجمل من أن يصدقه أحد. النبيذ له لذعة لذيذة ويوتا تسألنى وقد عاد وجهها لطابعه الجدى:

- هل تتوقع أن يبلغ شعبان البوليس عنا؟

- ماذا؟

استغرقتُ فى الضحك فابتسمتْ كالمعتذرة وقالت:

- لا تظن بى الضعف! لست جبانة لكنى لا أحب المشاكل وأنا أعرف المتعصبين. كلهم متشابهون. لدينا أيضاً متعصبون مثل شعبان فى ألمانيا.

- هل يمكن أن ننسى موضوع شعبان تماماً؟

سألتها مبتسماً فأجابت بهزة من رأسها ولم تلبث أن قالت بمرح:

- تعرف يا عصام! أن لقاءنا الليلة من أغرب ما حدث لى فى حياتى. ضحكت ولم أرد فاستطردت وهى تسند ظهرها إلى المقعد:

- لست فتاة فاضلة بالمعنى! كثيراً ما أتورط فى علاقات لمجرد شعورى بالملل أو لأن رجلاً ما اجتذبنى فى ظروف معينة. هذه العلاقات نسميها عندنا «علاقات الليلة الواحدة» ولكنى مع ذلك أول مرة أنزلق مع رجل بهذه السرعة، تصور أننا من ساعات لم نكن نعرف بعضنا ولو أننا التقينا فى الشارع لما التفت أحدنا للآخر، وها أنت تقضى الليل فى شقتى وأشعر وكأنى أعرفك من وقت طويل. أزال النبيذ بقية رهبة فقمت واقتربت منها وتناولت يدها وقبلتها وملت بوجهى على وجهها ولكنها تباعدت ضاحكة:

- لا! ليس بهذه السرعة! سيكون مضحكاً لو أننا دخلنا من باب الشقة إلى غرفة النوم.

جلست وصببت لنفسى كأساً جديداً وفكرت فى أن ما يحدث جميل لدرجة تمنيت معها لو أتمهل لأتذوق تفاصيله . دائماً أندفع متعجلاً إلى الذورة وعندما أدركها، تتوهج ثم تنطفئ ولا تبقى إلا الذكرى الدافئة البعيدة، عندئذ ينتابنى الحزن وألوم نفسى لأننى تسرعت فى اجتياز اللذة وكان بإمكانى أن أحتفظ بها طويلاً بين أصابعى.

- هل تعرف أن مظهرك خادع؟

- كيف؟!

- لأول وهلة ظننتك خجولاً لا تنقصك الجرأة لكنى اكتشفت أنك العكس.

- فكرتك الأولى صحيحة. إن تصرفاتى الليلة تدهشنى. أنا فى الواقع شخص ضعيف وعادة ما أعجز عن المواجهة.

- لا يمكن أن أصدق ذلك.

- على الأقل هذا هو الشخص الذى كنته من ساعات.

قالت وهى تبتسم وتدنو منى بوجه متورد:

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أننى تصرفت الليلة بشجاعة لأنى معك.

فاقتربت أكثر وهمست:

- أحب كلماتك.

قبلتها فأرجعت رأسها وقالت:

- أشعر بكسل! هل تقوم أنت وتحضر الزجاجة الثانية من المطبخ؟

قبلتها وأنا أنهض. أحسست بأن ملمس خذها ينثنى تحت شفتى فغمرتها بالقبلات واستكانت بين ذراعى ثم ابتسمت ومدت ذراعيها وقالت:

- هل رأيت ما فعلته بى.

كان جلد ذراعيها مقشعراً.

وقلت:

- ما معنى ذلك؟

فضحكت وقالت:

- له معنى هام للغاية.

قبلتها من جديد ولم أعد أميز بعينى ما أراه. دسست أنفى فى شعرها وذاب كل شئ فى جمال سحرى وهمست إلىّ ضاحكة:

- ما رأيك فى اتفاق! تحضر أنت الزجاجة من المطبخ وأسبقك أنا إلى حجرة النوم.

●●●

ثلاث شمعات يتراقص نورها فى ظلمة الحجرة. النور والظلام يختلطان وطعم النبيذ والحرارة ورائحة طيبة هادئة تنبعث من جسدها وأضمها إلىّ فيمتد إحساسى. ترسخ جذوره وأعود إلى اللحظة الحقيقية التى عرفتها مرة واحدة من قديم ثم فقدتها وها أنا أعود إليها. أود لو أهمس لها بشعورى. لو أحتويها بإحساسى كما أحتويها بجسدى. حلم سحرى انتشلنى من الواقع القبيح المعادى الذى طالما سحقنى بقبضة لا ترحم.

قالت لى:

- أشعر بنعاس.

ثم دنت وهمست:

- أحب أن تضمنى بذراعيك حتى يطلع الصباح.

ورقبت وجهها المطمئن تنساب إليه شيئاً فشيئاً هدأة النوم.

●●●

كنت واثقاً من إشراقك وانتظرتك وحكيت لهم عنك فلم يصدقنى أحد، لكنى تحملت الآلام ولم أفقد أملى للحظة. كنت مؤمناً بك. بأنك ذات مرة، فجأة سوف تبزغين لتبرئى بيديك جراح القسوة وتذيبى الظلم بابتسامتك، حينئذ لا يتبقى من الوحدة والعجز والألم إلا ذكريات شائكة مفزعة، أضمك إلىّ وأفضى بها على صدرك حتى أطمئن وأنام.

فى الظلام تقلص وجهى وسرت إلى رجفة واستسلمت للبكاء وبللت دموعى وجهها فأفاقت ومدت يدها وأنارت مصباحاً فوق الفراش وحدقت فى وجهى وسألت فى جزع:

- تبكى؟!

لم أرد وسكتت هى لحظة وكأنها فهمت ثم نظرت إلى الساعة وقالت:

- السادسة! لا بد أن أنهض الآن! ينبغى أن أكون فى مكتبى بعد ساعة. قامت عارية إلى النافذة وفتحتها فغشى الحجرة نور النهار وتسللت ريح باردة وألقت على وجهها نظرة عابرة فى المرآة وسألتنى وهى تخرج:

- قهوة أم شاى فى الإفطار؟

سألتها وأنا أرشف القهوة:

- هل أراك الليلة؟

- إذا كنت حقاً ترغب فى ذلك؟

ابتسمتُ ولم أعلق.

- تستطيع أن تأخذنى من المكتب بعد انتهاء العمل. أنا أنصرف فى الثالثة. عندما نزلنا من البيت كان دكان شعبان مغلقاً وكان الطريق خالياً تماماً وقالت لى:

- ألا تأتى معى لتعرف مكان عملى. إنه قريب . فى آخر الشارع.

مشيت بجوارها بضع دقائق حتى توقفت أمام بيت صغير من دورين. على شرفة الدور الأول. رأيت لافتة كبيرة «مصطفى يسرى . استيراد وتصدير». أشارت يوتا إلى اللافتة وقالت:

- هنا أعمل. الدور الأول شقة ٣.

ثم التفتت حولها ومالت على وجهى بسرعة وقبلتنى وهمست:

- أراك فى الثالثة ودخلت إلى المبنى.

مشيت وحدى حتى خرجت إلى الشارع الرئيسى أوقفت تاكسى. آثار النوم لم تزل على وجه السائق. رحت أتفرج من النافذة. الحركة بدأت فى الشوارع. الناس يتجمعون كعادتهم كل صباح أمام محطة الأتوبيس. يبدأون يوماً جديداً بوجوه منهكة من أثر الأمس. بدا لى غريباً أن شيئاً لم يتغير هذا الصباح. كنت أتوقع أن يبدو كل ما أراه بشكل جديد رائع .لكن كل شئ ظل على حاله، وكأنى لم ألق يوتا ولم أحيا معها أجمل لحظات حياتى وكأن رجلاً قوياً لم يولد داخلى.

ما أن دخلت باب البيت حتى تلقتنى أمى بصياح باك:

- قلبى وربى غاضبان عليك إلى يوم القيامة.

تجاهلتها واتجهت فى صمت إلى حجرتى لكنها لاحقتنى فى الردهة وأمسكتنى من يدى وقالت:

- كده برضه يا عصام! مش حرام عليك! تخلينى طول الليل قلقانة عليك! أنت مش عارف إنى عيانة وصحتى ما تستحملش القلق.

كل ما يهمها هو تأثير القلق على صحتها. نظرت إليها. حدقت فى عينيها حتى غابت التفاصيل وغامت الرؤية. استغرق ذلك لحظات ولما انتبهتُ دلفتُ بخطى منهكة إلى غرفتى واستمرت أمى تندب حظها بصوت باك.

كنت أعرف أننى لن أستطيع النوم فلم أحاول طويلاً. فتحت النافذة فانتشرت أشعة الشمس فى أنحاء الحجرة وأحضرت لى هدى الجرائد والقهوة. عبرت بنظرى عناوين الصحف وألقيتها بجانبى. انعدمت قدرتى على التركيز. أنا أنتظر الساعة الرابعة وليس بإمكانى أن أفكر بشئ آخر. فى الرابعة سألقاها، أقبلها وأضمها وتنام بين ذراعى كما حدث بالأمس. مر الوقت كالدهر ولما قاربت الساعة الثانية قمت واغتسلت وارتديت ملابسى ولمحتنى أمى فهرعت ورائى فى جزع:

- أنت خارج؟

- نعم.

هكذا تمتمت بغير أن ألتفت فأمسكتْ بذراعى وقالت:

- بلاش يا عصام والنبى! أنت ما نمتش وأعصابك تعبانة.

خلصت ذراعى منها بعنف وخرجت وصفقت الباب ورائى بقوة.

الجو حار والعرق يتصبب على جبينى وأنا أنتظر المترو وسط الحشد، قلت أدخر أجرة التاكسى. لا زال أمامى ساعة وسوف أحتاج لا شك إلى نقود الليلة. بعد نصف ساعة جاء المترو مزدحماً واندسست بين الركاب حتى حجبت أجسادهم عنى الضوء فساد الظلام من حولى. وصلت مدينة نصر وأخرجت الورقة من جيبى، كنت قد سجلت عنوان يوتا لئلا أنساه. مشيت عشر دقائق حتى وصلت إلى المكتب.

ازدادت حرارة الجو حتى أننى تخففت وفككت أزرار القميص. بدا البيت كما بدا فى الصباح ونفس اللافتة «يسرى مصطفى. استيراد وتصدير». تمنيت هذه المرة وأنا أعبر مدخل البيت أن يستوقفنى البواب. صرت سيداً قوياً منذ الأمس. سوف أرده عنى فى ثقة واقتدار. لم يستوقفنى أحد ولما دخلت إلى المكتب كان قلبى يخفق بعنف. سوف أرى يوتا الآن. هل أندفع وأحتضنها وأغمر وجهها بالقبلات أمام زملائها. أجلت التفكير فى ذلك. كان المكتب المواجه للباب خالياً وبدا من علبة سجائر وجريدة مفتوحة أن الموظف الجالس عليه قام لأمر ما وسيعود، فى ركن الحجرة كانت بنت صغيرة محجبة تدق على الآلة الكاتبة. وقفت دقيقة أمام المكتب الخالى ثم اتجهت إلى حيث تجلس الفتاة. توقفتْ عن الكتابة ورفعتْ إلىّ وجهها كانت جميلة لكن نظرتها إلىّ خلت من أي تعبير. كأنها لا تعرفنى ولا ترحب بى ومع ذلك فإن وجودى لا يدهشها ولا يضايقها أيضاً، لولا أنها ردت تحيتى بإيماءة صغيرة لظننتها لا ترانى.

- ممكن أقابل الأنسة يوتا.. من فضلك؟

- من؟

- الآنسة يوتا الألمانية!

ابتسمت الفتاة . بعد ذلك لما استرجعت ابتسامتها فهمت كل ما حدث. قالت وهى تستأنف الكتابة:

- لا يعمل لدينا أحد بهذا الاسم.

- بل هى تعمل هنا. أنا متأكد. أنا على موعد معها. أرجوك اخبريها أن عصام ينتظرها.

لم تلتفت إلىّ هذه المرة. ظلت تدق بيديها على مفاتيح الآلة. أثارنى تجاهلها فاقتربت منها وصحت:

- أنت يا آنسة! ألا تسمعين! أقولك اخبرى يوتا أننى هنا.

رفعت رأسها ونظرت إلىّ فى صمت ثم استأنفت الكتابة من جديد. فقدت أعصابى تماماً. رحت أصيح ولم ألبث أن شتمتها ثم دفعتها فى كتفها. أحسست فى يدى بصلابة عظمة كتفها. على الضجة خرج بضعة موظفين وتقدم منى رجل نحيف وأصلع فى نحو الأربعين يرتدى بدلة رمادية أنيقة وعيناه واسعتان قويتان. أمسك بذراعى وسألنى عما أريد بعنف وأجبته بأنى أريد أن أرى يوتا ولما أجابنى كما أجابت البنت المحجبة ثرت فى وجهه لكنه شدد قبضته على معصمى فآلمنى وشل حركتى تماماً. أخذت أصيح وأشتمهم جميعاً واختلط فى أذنى صياح وكلمات «مجنون» و «بوليس» ووجدتنى والرجل ذو البدلة الرمادية يجرنى من معصمى ناحية الباب ثم يدفعنى بيديه الاثنتين فى ظهرى بقوة ألقت بى خارج الشقة.

ترنحت وكدت أقع على السلم ولم يلبث هو أن أغلق باب المكتب بعنف.

اندفعت أنزل الدرج إلى الشارع بأقصى سرعة. لم أكن أشعر بغضب أو دهشة. كنت كمن يريد فى آخر لحظة أن يمنع كارثة مؤكدة، رحت أعدو فى الشارع، بطرف عينى كنت ألمح المارة يتوقفون ويتطلعون إلىّ بدهشة. بعد دقائق وصلت إلى مسكن يوتا، توقفت لحظة أمام البيت، كنت ألهث وكان العرق الغزير يسيل على وجهى ورقبتى، دلفت من المدخل لكن صوتاً أجش فاجأنى:

- رايح فين يا أخ؟!

كانت لهجته وقحة وخطر بذهنى وأنا ألتفت إليه أنه شعبان. شعبان بلحيته وعلامة جبهته الداكنة ودناءته. شعبان تنز بشرته الغليظة بالدهن والخبث. اندفعت ناحيته وهويت على وجهه بضربة أصابته تماماً فترنح جسده الضخم وقبل أن يعتدل عاجلته بضربة أخرى وركلته فى بطنه بقوة ثم دفعته فسقط على الأرض فارتميت عليه ورحت أضربه على رأسه حتى أحسست فى أصابعى بلزوجة الدم.

●●●

كانت المؤامرة محكمة، وعندما أسترجع الآن بهدوء الأحداث والتفاصيل يتملكنى الإعجاب بمهارتهم وتخطيطهم الدقيق.

حقاً دبروا الأمر بإتقان. قال شعبان فى التحقيق إنه لا يعرفنى وليس بيننا عداوة مسبقة وقال إنه رآنى أدخل العمارة فى الليلة السابقة لكنه خشى أن يسألنى لأنه أدرك أنى مخمور وخاف أن أؤذيه ونفى بشدة كما

نفى سكان العمارة وصاحبها وبوابها أن فتاة ألمانية تسكن فى العمارة كما أن يسرى مصطفى صاحب المكتب- الرجل الأصلع ذا البدلة الرمادية - اتهمنى فى محضر التحقيق بالجنون ونفى أن فتاة ألمانية قد عملت فى مكتبه يوما، حتى نادل بار سميراميس لما استدعاه البوليس قال إنى سهرت فى البار فى الليلة السابقة وأنى شربت كثيراً لكنه نفى أيضاً أن فتاة أجنبية كانت بصحبتى وأكد أننى جئت وحدى وانصرفت وحدى فى الواحدة والنصف صباحاً. ولما سأله المحقق إن كان لاحظ علىّ شيئاً غير طبيعى أجاب بأنه لاحظ أنى كنت أحدث نفسى بالإنجليزية بصوت عال وأضحك لكنه حينئذ اعتبر الأمر عادياً وعزاه لسكرى الشديد.

●●●

أحاطت بى الدائرة تماماً. ولا ثغرة واحدة أنفذ منها. تآمروا علىّ جميعاً. كل من عرفوا قدرى وأحنقهم تفوقى. كل الذين كرهتهم واحتقرتهم، الدكتور سعيد وشعبان والنادل، حتى أمى وهدى وجدتى العجوز، كلهم اتحدوا ليمنعوا خطراً محققاً سوف يسحقهم إذا ما اجتمعت بيوتا- أنا الذى اقتربت ورأيت- تآمروا ونجحوا وها هم يعزلوننى فى مكان خاص يلبسوننى ثياباً خاصة، أحكموا قبضتهم علىّ ولم أجد بداً من الاستسلام وعندئذ تظاهروا بالأسف من أجلى، يزورونني ويحملون إلىّ الورود وعلب الشيكولاتة ويتحدثون مع الطبيب بشأنى، يرسمون على وجوههم تعبيرات القلق والرجاء ثم يودعوننى بنظرة يطمئنون بها على أننى لن أستطيع الافلات من قبضتهم. ، ثم ينصرفون.

تمت الأوراق .... طبق الأصل.

٢ المرطون

لسبب مجهول ارتبط الذكاء فى الأذهان بلمعان العينين، وصار كل من يريد أن يثبت أنه لماح يحدق فى وجوه الناس ويركز نظره فى عيونهم ليشهدوا بأنفسهم كيف تبرق عيناه وتلمع من فرط الذكاء.. على أن هشام لم تلمع عيناه قط، وكانتا أيضاً ضيقتين، كما أن بشرته السمراء وملامحه العادية وجسده الضئيل وميله الفطرى للخجل والانطواء كل ذلك جعله يبدو مجرد واحد من تلك الآلاف المتشابهة التى تغص بها الشوارع والمواصلات لكنك ما أن تبدأ هشام بحديث حتى تدهش، لأنه سيدرك- فوراً- ما تقول ويعقب عليه وأنت بعد لم تفرغ، ثم يصمت بعد ذلك ويبتسم فى هدوء وكأنه يعتذر لأنه سبقك. ويقولون- والعهدة على الراوى- إن هشام تكلم مبكراً جداً وهو طفل، وإنه قبل أن يتم عامه الثالث، كان بمقدوره أن يلف شريط المسجل «الجروندج» الكبير، ثم يثبت البكرة على الجهاز، ويدخل الشريط فى الإطار، وأخيراً، يضغط الزر بأصبعه فتنبعث الموسيقى، ولأن مدرسة ثانوية واحدة جمعتنى وهشام فقد رأيت بنفسى تفوقه الكاسح.. ولم يكن تفوق هشام هو المدهش وإنما مجهوده فى التحصيل.. لم يكن هشام من أولئك الذين يصمدون للاستذكار عشرات الساعات، كان يفهم الدرس مرة ويقرأه مرة، وقد يحل بعض التمارين ليحصل بعد ذلك على الدرجة النهائية بغير عناء.. وفى حصة الرياضيات.. كان كثيراً ما يقف ليشرح لنا بصوته الهادئ كيف توصل لحل مسألة حيرتنا جميعاً وعندما يفرغ يشكره المدرس كنا نرمقه بإعجاب أو حسد، ولم يكن هو يتحمل أن يظل محط الأنظار.. فكان يتشاغل بالبحث عن قلمه، أو يمد رأسه للخلف ويفتح حديثاً مع الطالب الجالس وراءه.. وفى الثانوية العامة جاء ترتيب هشام الأول على المدرسة، وأحب هو أن يلتحق بكلية الهندسة، لكن أمه بكت وتوسلت

واستحلفته برحمة أبيه، وذكرته بأنه وحيدها الذى انعقد عليه الأمل ليكون طبيباً، وأذعن هشام ودرس الطب خمس سنوات واحتفظ بتقدير ممتاز.. ويقولون إن معلوماته فى الامتحانات الشفوية كانت تنتزع الإعجاب من أشد الممتحنين تجهماً وشراسة- ويقولون أيضاً- إن الدكتور مندور أستاذ التشريح الشهير.. بعد أن امتحن هشام، قام إليه وصافحه وطلب له مشروباً مثلجاً (وهذه تحية تقدير قلما يجود بها الأستاذ الكبير على أحد) ولأن هشاما كان فذاً إلى هذا الحد، ولأنه أيضاً ليس ابناً لأستاذ جامعى أو قريباً لوزير، فقد جاء ترتيبه فى التخرج... العشرين على الدفعة.

عُين هشام نائباً فى قسم الجراحة العامة، وكانت فرحته بذلك صادقة.. ولما بلغ النبأ أمه وكانت تقشر البطاطس أمام التليفزيون..، فرحت وزغردت ثم بكت ودعت وصلت ركعتين شكر لله، ولم تلبث أن نشرت الخبر بالتليفون على الأقارب والمعارف ثم ارتدت ملابسها ونزلت تشترى الشربات والجاتوه ولما وصل أول المهنئين وكانوا من الجيران قصت عليهم الأم (وقد بدت حينئذ أكثر رزانة ووقاراً باعتبارها أماً لطبيب جراح) قصت عليهم كيف أن هشام لم يسع للوظيفة بل هم الذين حرصوا على تعيينه لنبوغه.. وفى اليوم التالى لما جاء مهنئون جدد كانت الأم تحكى لهم حواراً كاملاً دار بين رئيس قسم الجراحة وابنها، يلح فيه الرئيس على هشام ليقبل العمل معه، ويطلب هشام فرصة للتفكير لأنه متردد.

●●●

نقر هشام على الباب وفتحه فتحة صغيرة- تأدباً- ودلف بالكاد إلى الداخل.. كان الدكتور بسيونى رئيس القسم جالساً يتحدث مع ثلاثة من

الأساتذة ولما ظهر هشام أمسكوا ونظروا إليه متطلعين، وأحس هو بضربات قلبه تتابع، فاستجمع شتات أنفاسه المبهورة وتبسم فى ود متأدب وقال:

- صباح الخير

لم يردوا عليه واستمروا ينظرون .. وكان لابد أن يفسر وجوده فقال:

- أنا هشام فخرى.. النائب الجديد يا فندم.

- انتظر فى الخارج

قالها رئيس القسم بغير اهتمام واستأنف حديثه مع الأساتذة.. وخرج هشام وأخذ يقطع الردهة ذهاباً وإياباً ودخن ثلاث سيجارات.. ولما خرج الأساتذة من مكتب الرئيس أعاد هشام كل ما فعله فى المرة الأولى، بدءاً من نقر الباب إلى تقديم نفسه لأن الدكتور بسيونى- فى تلك الدقائق القليلة كان قد نسى كل شئ عنه..

- اسمع يا ابنى..؟ أتعرف ما وظيفتك فى القسم؟

وحار هشام فى الرد

- إنت شغلتك هنا مرمطون.. قالها الرئيس واستغرق فى ضحكات سريعة متتابعة وراح يلعب بأصابعه فى سوالفه الطويلة.. وكاد هشام أن يضحك هو أيضاً مجاملة لكن هاتفاً منعه لحسن الحظ.

- هل تعرف مرمطون المطبخ؟ الولد الذى يلم قشر البصل ويمسح البلاط ويضربه الطباخون على قفاه.. أهو نائب الجراحة هو مرمطون المطبخ تماماً.

وهز هشام رأسه.. واستطرد الرئيس:

- سوف تفعل ما نريدك أن تفعله.. إياك أن تعترض أو تشكو.. كل شئ بثمنه.. تريد أن تصبح جراحاً؟ ستدفع الثمن كما دفعناه جميعاً.. تعب وعرق وظلم وإهانات.. وبعد ثلاث سنوات من الآن- إذا أعجبتنى- سوف أوقع بيدى قراراً بتعيينك مدرساً مساعداً فى الجامعة، أما إذا لم تعجبنى فسوف أستغنى عنك، ولترجع إلى وزارة الصحة حماراً كأى حمار هناك..

وكأنما خطر هنا للرئيس.. أن هشام أخذ من وقته أكثر مما يجب، فتجهم وزعق فى غضب مفاجئ.

- يالله .. تفضل.. استلم فى شئون العاملين.

●●●

الدكتور بسيونى غنى عن التعريف... هو رئيس قسم الجراحة العامة وأيضاً رئيس الجمعية العربية للجراحين، وعضو فى عشرات الجمعيات الطبية العالمية، وهو إلى جانب ذلك شخصية عامة، تنشر الصحف آراءه فى الاقتصاد، ويستضيفه التليفزيون فى رمضان ليحدثنا عن أكلاته المحببة... والدكتور بسيونى قبل كل شئ- لا يمكن أن ننسى- جراح فذ، دخل تاريخ الجراحة من أوسع أبوابه. ولأن الدكتور كل ذلك، فإنه طبعاً يختلف عنى وعنك- نحن العاديين الباهتين المجردين من أية قيمة أو موهبة- فالواقع أن الدكتور بسيونى شخص عجيب بقدر ما هو فذ ماهر، وأشياؤه الغريبة تثير حوله الفضول والتعليق وأيضاً الرهبة الإعجاب. ففى حر أغسطس مثلاً يرتدى الدكتور بسيونى قميصاً بنصف كم كأى مواطن آخر لكنه- لابد - يعقد حول رقبته كرافت طويلة جداً تصل إلي ما تحت الحزام، ولا يعرف أحد لماذا يصر الدكتور على الكرافت وهو لا يرتدى جاكيت؟ ولا يعرف أحد

أيضاً فائدة أن تكون كرافت بهذا الطول؟ وهو إلى ذلك ينتقى لملابسه ألواناً زاعقة فاقعة، كأنما يتعمد ألا تتناسق (ويقولون إنه اكتسب هذا الذوق من إقامته فى أمريكا...) وإذا كان مفهوماً أن يطيل أحدنا سوالفه قليلاً، فقد أسرف الدكتور فى ذلك وكسا وجهه بسوالف شيباء طويلة تمتد إلي ما تحت الأذنين، حتى بات يشبه لوردا إنجليزيا من القرن التاسع عشر، أو بقالاً يونانياً فى الإسكندرية.. على أن منظره العام بسوالفه وألوانه الزاعقة وصلعته الخفيفة وجسمه القصير الممتلئ وحركاته السريعة العصبية لا يخلو من جمال، ولا ينم بحال عن سنواته الستين.

والدكتور بسيونى أعزب لم يتزوج ويرجع ذلك - فى أحد التفسيرات- إلى إخلاصه لحب قديم انتهى نهاية أليمة.. أما من ناحية الإدارة فمعروف أن قسم الدكتور من أكثر الأقسام انضباطاً فى القصر العينى، وهذه حقيقة برغم أن الدكتور - فى غير أيام العمليات - لا يقضى فى القسم أكثر من ساعة يومياً و ينصرف بعدها مسرعاً إلى عيادته بوسط البلد .. لكن غياب الدكتور فى القسم لا يعنى إطلاقاً أنه غافل عما يحدث فيه، وهو عادة ما يستدعى إلى مكتبه أى شخص (من أكبر أستاذ إلى أصغر نائب) ليوبخه أو يهنئه على شئ فعله فى غيابه، ولا يعلم أحد حتى هذه اللحظة كيف يعرف الدكتور ما حدث وهو غائب، طبعاً التخمينات كثيرة.. لكن الصعب حقاً أن تقطع بأن شخصاً بعينه هو مصدر المعلومات، والنتيجة مدهشة.. فقد بات أطباء القسم يعملون ويتكلمون ويضحكون وكأن الدكتور معهم.. وقد يختلف اثنان منهم مثلاً- بل وينفعلان ويحتدان- حول تاريخ حصول الدكتور على الدكتوراه أو من أى جامعة أمريكية نالها (برغم أن الأمر لا يعنى الاثنين) لكنهما يؤمنان بأن ما يقولانه- ككل ما يحدث فى القسم-

سينُقل للدكتور بتفاصيله.. وإذا كان هكذا غياب الدكتور فكيف يكون حضوره.

حسناً.. إذا حضر الدكتور فإن كل شخص يحرص على إتقان عمله حرصه على الحياة.. لأن الدكتور لا يعرف الهذر وهو يعاقب المخطئ مهما كان ويكون عقابه فورياً وأيضاً- ككل ما يفعله- غاية فى الغرابة.. فهو إذا وجد سيارة مركونة فى المكان المخصص لسيارته، أمر فوراً بتفريغ عجلاتها الأربع من الهواء، وانصرف، (ولنا أن نتخيل بعد ذلك عناء صاحب سيارة بأربعة إطارات فارغة) وهو إذا لمح تومرجياً يصنع الشاى بجوار أسرة المرضى.. انقض فوراً على براد الشاى الساخن، وطوح به من الشباك (ولايهم على رأس من يقع البراد.. فهذه مشكلة المارة فى الشارع).. وإذا دخل الدكتور غرفة التعقيم، ووجد الفرشاة التى يدعك بها يده غير نظيفة.. قذف بها فوراً فى وجه الحكيمة وهو يقذف بها فعلاً بمعني أنها قد تصيب الحكيمة فتفتح دماغها.. (حدث هذا مرة واحدة مع حكيمة جديدة أما الباقيات فيعرفن بالخبرة كيف يتفادين الأشياء المقذوفة).. وفى غرفة العمليات، خلال تلك الدقائق الرهيبة التى يتحدد فيها مصير شخص مخدر مفتوح الأحشاء، يهمس مساعدو الدكتور فى وجل ويتصبب عرقهم برغم برودة التكييف.. ويظل الدكتور- وحده- رابط الجأش، ويعلو صوته الحاد لاعنا أهل من يعملون معه وهو يشتمهم فى جمل مختلفة لها تركيب واحد كأن يقول: «اشفط الدم يا حيوان» أو «دى خياطة يا جحش؟.» والمدهش أن المشتوم- جراحاً كان أو حكيمة- لا يأبه للشتم بقدر ما يركز تفكيره فى إصلاح الخطأ.. والحق أن الدكتور لا يشتم مساعديه فقط إذا غضب، لكنه يلعنهم أيضاً إذا رضى وأثنى.. فبعد انتهاء العملية يقول لأحدهم مثلاً:

«إنت حمار جراحة صحيح.. لكن عملت شغل حلو الليلة». وهكذا تغير مدلول الشتائم فى لغة الدكتور.. وصار يستخدم أسماء الحيوانات كما نستعمل- نحن العاديين- «أنت» و «أنتم» وسائر أسماء التخاطب فى لغتنا.

●●●

تعب هشام كما لم يتعب فى حياته .. كان يعمل كل يوم من السابعة صباحاً حتى منتصف الليل، وأيام العمليات (الأحد والأربعاء) كان يبيت ليلته فى القسم، وعندما يرجع لبيته منهكاً كان عليه أن يجد ساعة أو ساعتين يستذكر فيها دروس الماجستير.. والنتيجة إنه لم يكن ينام أكثر من أربع ساعات يومياً.. فهزل وشحب وجهه واستقرت هالات سوداء بشكل دائم حول عينيه.. ولحظت أمه عصبيته ونعت عليه مراراً إسرافه فى التدخين وكانت - إستجابة لإلحاحه- توقظه كل يوم فى الفجر وهى تكاد تبكى إشفاقاً على جسده الضعيف من هذا الإرهاق.. لكن تعب هشام لم يكن يؤلمه.. الذى كان يؤرقه أن يذهب تعبه هباء، كان الهدف فى ذهنه واضحاً محدداً.. «أن يصبح جراحاً كبيراً» ولأنه كان يدرك أن مستقبله كله يتحدد فى تلك الأيام، فقد كان على إستعداد- لو أسعفه الوقت- أن يضاعف المجهود، وصدق أو لا تصدق فقد عمل هشام مع الدكتور بسيونى عاماً كاملاً بغير كوارث. فقد كان يدخل إليه كل أسبوع مرتين ليعرض عليه قائمة العمليات.. وفى كل مرة، كان هشام يقترب من الدكتور بسيونى.. تماماً كما يقترب أحدنا من سلك الكهرباء أو مفتاح الغاز ليصلحه أى أنه كان يمد يده بالأوراق ويتراجع تحسباً لإنفجار وشيك، لكن الدكتور بسيونى- لدهشة هشام- لم ينفجر قط.. لم يخل الأمر طبعاً من بعض أسماء التخاطب (تعود الدكتور أن يسمى هشاما بالحلوف).. لكن هذه هينة.

وبينما لم يسبب الدكتور بسيونى مشكلة لهشام، فقد سبب له الآخرون مجموعة متنوعة من المشاكل ولا بد هنا أن نذكر أن قسم الدكتور يضم أربعة أساتذة سواه، وأن أحداً منهم ليس فى شهرته أو سلطته.. فالدكتور منصور مثلاً تخرج بعد الدكتور بسيونى بعام واحد، وهو يحمل مثله دكتوراه من أمريكا، وهو أيضاً جراح ماهر، لكنه لسبب غير مفهوم، كما يحدث كثيراً فى الحياة، ليس لامعاً مثله.. وبينما يكون حضور الدكتور بسيونى- بمنظره العجيب- مؤثراً فى الناس، فإن الدكتور منصور برغم حرصه على البدلة الكاملة صيفاً وشتاء، كان على أحسن تقدير يشبه مديراً فى الحكومة، أى أنه بشعره الأشيب ونظارته وأدبه وصوته الخفيض كان بكل تأكيد شخصاً محترماً . لكنه ليس أبداً أكثر من ذلك، ولم تكن عيادة الدكتور منصور تدر عليه كثيراً.. إذ يفضل المرضى عادة التعاقد مع جراح مشهور لأنه طبعاً أكثر مهارة وإلا فكيف جاءت شهرته؟ ولأن الدكتور منصور كان لديه من الوقت متسع، فقد تعود أن يقضى معظم النهار فى القسم متجولاً بين أنحائه، يراقب ما يحدث عن بعد، ويتدخل دائماً فى الوقت المناسب.. فهو ينتظر مثلاً حتى يكتب أحد الأطباء دواءً ما لمريض وما أن يلمح الدكتور منصور الامتنان فى عين المريض أو يسمع أهله يشكرون الطبيب، حتى يقترب مسرعاً ويسأل الطبيب بصوت هادئ عما كتبه، ثم يبتسم الدكتور منصور فى سخرية خفية (لكنها تظهر على أي حال).. ويعلن للطبيب أن كل ما كتبه خطأ فى خطأ (لم يحدث قط أن وجد الدكتور منصور أى طبيب مصيباً فى أية مرة). ولا يفوت الدكتور منصور أن يشرح بصوت واضح مسموع المضاعفات التى كانت ستحدث لو أن المريض أخذ هذا الدواء الذى يدمر الكبد تماماً. وعندما يلمح بطرف عينه

الجزع والحيرة على وجه المريض، كان الدكتور منصور يداعبه قائلاً: احمد ربنا.. كاد الدكتور أن يقتلك.. ولابد هنا أن يتوسل المريض وأهله للدكتور منصور ليصف لهم دواء آخر، فيتناول الدكتور منصور «الروشتة» ويشطب الدواء الأول بحسم، ثم يكتب دواء آخر (لا يختلف عادة عن الأول).. ثم يتنهد ويهز رأسه وكأنه يقول... «ماذا أفعل لهؤلاء الأطباء الجهلاء يا ربى؟» وينصرف بعد ذلك تماماً كما جاء.. فى هدوء وأدب.

وكان الدكتور منصور يعلق على أفعاله هذه قائلاً: «إننى دائماً.. أنقل خبرتى الطبية لأولادى» وبنفس هذه الروح الأبوية، تعود الدكتور منصور أن يزهق آمال الطلاب الذين يشرف على رسائلهم العلمية، فهو بعد أن يجهد الطالب عامين كاملين فى البحث، وعندما يقترب البحث من نهايته ويداعب الطالب الأمل فى نيل الدرجة العلمية (ماجستير أو دكتوراه) كان الدكتور منصور يكتشف دائماً فى البحث خطأ ما جوهرياً وكان يخبر الطالب بذلك فى روية وتمهل (كتمهلك وأنت ترشُف الشاى النعناع).. ثم يرقب فى هدوء وجه الطالب الذى يعتريه الإحباط والقنوط، ويرفض بأدب وحسم- محاولات الطالب المحمومة للدفاع عن البحث، وعندما يستولى اليأس على الطالب، ويلوذ فى النهاية بالصمت، كان الدكتور منصور عندئذ يتنهد فى إرتياح صادق- ويقول:

لا تكابر يا بنى.. أمامنا عام على الأقل من العمل.

ويتجدد هذا العام مرة أو مرتين.. وكثيراً ما كان الدكتور منصور- بعد كل ذلك ينصح الطالب بأن يبدأ من جديد مع مشرف آخر، لأنه ببساطة غير راضٍ عن البحث، ولا يقبل أن يضع عليه اسمه.. والخلاصة أن الدكتور

منصور فى عشرين عاماً لم يحصل تحت إشرافه على درجة علمية سوى طلاب أربعة، صمدوا للنهاية وكان الطبيب الشاب الذى يقع الدكتور من نصيبه فى الإشراف.. يتلقى من زملائه عزاءً حاراً وكأنه فقد عزيزاً.. وقد دعا الدكتور منصور هشاماً- بعد أيام من تعيينه- لحضور عملية يجريها.. وامتن هشام كثيراً لهذه اللفتة وتعقم ودخل مع الدكتور، وكانت العملية لاستئصال مرارة فلاح بائس من المنوفية، وبعد أن تم الإستئصال طلب الدكتور منصور من هشام تخييط الجرح، وركز هشام ذهنه وأحكم يديه وخيط الجرح كأفضل ما يعرف، صحيح كانت يده بطيئة، لكنه لم يخطئ كان واثقاً من ذلك. وبعد العملية طلب الدكتور منصور هشاما فى مكتبه ودعاه للجلوس وقال وهو يشعل سيجارة وينظر إليه بهدوء الصياد المحنك:

- اسمع يا هشام.. هل تغضب لو قلت لك إنك لا تصلح جراحاً؟ وارتاع هشام وسأله عما يقصد فقال الدكتور إن الجراحة إحساس قبل أن تكون تعليماً، وأنه بخبرته الطويلة، بمقدوره أن يحكم إذا كان الإحساس الجراحى موجوداً فى شخص ما، وقد تعمد أن يراقبه اليوم فى العملية ويستطيع- بكل أسف- أن يؤكد أنه لن يكون جراحاً يوماً، وهو لذلك ينصحه بالذهاب لقسم آخر- الباطنة مثلاً أو الجلدية- حيث يكون التدريب هو كل شئ.، واندفع هشام كما هو متوقع- فى محاولات عنيفة ثم يائسة لإقناع الدكتور منصور بأنه فى أول الطريق وأنه سيتعلم ويتحسن، لكن الدكتور كان يستمع مطرقاً إلى كلام هشام للنهاية، ثم يرفضه بجملة واحدة قصيرة، ثم يدفعه بجملة أخرى إلى المزيد من محاوله اقناعه وهكذا... حتى شبع الدكتور منصور تماماً من جزع هشام ويأسه فقام منهياً المقابلة وقال بصوت خفيض مهذب:

- أود أن أسمع عن استقالتك قريباً.. أنا آسف.. لكنى أعمل لمصلحتك..

●●●

«إن بضع دقائق لا تكفى للحكم عليّ، كما أنه ليس من سلطة أحد إجبارى على الإستقالة..» هكذا قال هشام لنفسه واقتنع واطمأن وقرر أن يخلع من ذهنه كلام الدكتور منصور وكأنه لم يكن، لكنه برغم ذلك- ظل لأسابيع طويلة- يرتبك كلما عهد إليه بشئ أثناء العمليات.. كانت كلمات الدكتور منصور تقفز إلى ذهنه وتلح فتهتز يداه ويبذل مجهوداً خارقاً لكى لا يخفق.. وعلى أى حال.. فقد أقلع هشام بعد ذلك عن مساعدة الدكتور منصور فى عملياته.. بل وبات يتجنب حتى رؤيته، فكان إذ لمحه قادماً فى الردهة يدخل غرفة جانبية ويتشاغل حتى يمر، وخيل إليه مرة أن الدكتور منصور رآه وأنه يبتسم، وانصرف هشام بعد ذلك لمساعدة بقية الأساتذة وقد أدهشته أنهم جميعاً- كل بطريقته- يسيئون معاملته.. وأعتقد فى البداية أنهم يكرهونه لسبب ما، لكنه لم يلبث أن اكتشف أنه ليس مقصوداً لذاته، لكن العلاقة بين الجميع سيئة، فرئيسة الحكيمات توبخهن دائماً، والأساتذة يتهمون الجميع- أطباء وحكيمات- بالجهل والتقصير.. والخلاصة أن كل شخص قد أخذ على عاتقه أن يفضح جهل الذى أصغر منه، وكانت المشاحنات تسير وفقاً لترتيب مسلسل لا يتغير، ففى الصباح يغلظ أستاذ ما لمدرس ويوبخه على الملأ وبعد أقل من ساعة يكتشف نفس المدرس خطأ قاتلاً ارتكبه مدرس مساعد، الذى لا يلبث بدوره أن ينكل بنائب أو حكيمة.. ولأن هشاما كان أصغر الجميع، فقد كان سيل الإهانات يصب

دائماً على رأسه.. وخوفاً من تورطه فى مشادة قد يسمع بها الدكتور بسيونى، كان هشام يتلقى الإهانة بالصمت.. وإذا أسرف من يهينه، كان عندئذ يوجه إليه نظرة لا ثمة حزينة ويبتسم، وكان يظن هذه الطريقة ستحرج كل من يتطاول عليه، لكن النتيجة كانت أن تضاعفت الإهانات بل وصار كل شخص فى القسم يصرخ فى هشام لائماً لأدنى سبب حتى الحكيمات- وهن مرؤوسات له- ضبطهن هشام أكثر من مرة يتغامزن عليه ويضحكن.. وكان ذلك يؤلمه، وفى كل ليلة قبل أن ينام كان هشام يضع الوسادة على رأسه ويتذكر بمرارة أحداث النهار وكان يصبّر نفسه قائلاً: «كل هذا سيتغير.. سأزداد مهارة.. سيكون ترتيبى الأول فى الماجستير وحينئذ سيفكرون كثيراً قبل أن يفعلوا ذلك.. بل إن أحداً لن يجرؤ حتى على مخاطبتى باسمى المجرد».

والحق أن هذا الجو المشوش المشحون بالضغائن لم يمنع هشاما من التعلم.. كان يقرأ جيداً عن كل حالة، وأثناء العمليات كان يركز ذهنه ويحدق فيما يراه ليحتفظ به فى الذاكرة، وكان لابد أن يتحسن، شيئاً فشيئاً قلت أخطاؤه فى التشخيص وكان واثقاً- لو سُمح له- أنه يستطيع أن يجرى عمليات كثيرة بنجاح، ولما اقترب امتحان الماجستير أدرك هشام أن فرصته قد حانت فانكفأ على الكتب يقرأ ويفهم ويحفظ، وكثيراً ما فاجأه فى الصباح وهو يستذكر، فكان عندئذ يأخذ حماماً بارداً ليفيق، ثم يذهب إلى القسم بغير أن ينام واجتاز هشام الامتحان التحريرى بغير أخطاء تقريباً ووفق تماماً فى العملى وكعادته فى الشفوي، انتزع إعجاب الممتحنين، ولما فرغ هشام من الامتحان كان واثقاً من النتيجة.

●●●

تسبب خطأ غير مقصود فى رفع اسمه من كشف الناجحين؛ هكذا ظن هشام، فلم يقلق كثيراً وذهب إلى مكتب شئون الطلاب وشرح الأمر لرئيس المكتب وكان الرجل مهذباً للغاية فأطلع هشام بنفسه على درجاته فى الإمتحان، ولم يتكلم هشام أو يناقش لكنه توجه فوراً إلى مكتب الدكتور بسيونى.. ونقر الباب بسرعة وقوة وفتحه ودخل، كان الدكتور بسيونى يقرأ.. وبادره هشام قائلاً بصوت لاهث محشرج (اندهش هشام نفسه لسماعه).

- لقد رسبت فى الإمتحان.

- مبروك.. قالها الدكتور بسيونى بغير أن يحول نظره عن القراءة- أريد أن أعرف لماذا رسبت؟ سأل هشام بعناد.

- رسبت لأنك لا تستحق النجاح. قال الدكتور لهشام وأخذ يلعب بأصابعه فى سوالفه الطويلة.. وكانت نبرته تنذر بانفجار قادم.

- «اننى لم أخطئ فى التحريرى ولا فى العملى... أما الشفوى»

وهنا اندفع الدكتور.

- اسمع يا حلوف أنت.. أتراني قد فرغت من أشغالى لأكرر ما أقوله لك كل يوم.. قلت لك ألف مرة هناك فرق بين امتحان الجراحة والشهادة الابتدائية نحن لا نسمح لكل من هب ودب بأن يكون جراحاً ، مهما كانت معلوماته، يهمنا شخصك وأخلاقك أولاً.. قلت لك من البداية أنك لن تنجح وتستمر معنا إلا إذا أعجبتنى... فاهم؟ ولاذ هشام بالصمت..

- تفضل شوف شغلك يا حلوف وخرج هشام.. واستأنف عمله كالمعتاد، ولما خلا لنفسه فى تلك الليلة لم يكن بالضبط حزيناً، استولى عليه شعور بالهلع، الهلع هو التعبير الصحيح، كان يشعر لأول مرة بأن ذكاءه- تلك القاعدة المتينة التى طالما استند إليها بثقة- لم تعد تجدى، وزاد من اضطرابه أن الدكتور أعلن له بوضوح أنه لا يعجبه (ألم يقل ذلك؟) وهو لا يعرف ماذا يفعل كى يعجب الدكتور بسيونى؟.. ومرت أيام .. وأسابيع.. وشهور وظل هشام يعمل فى القسم بنفس الدأب ولكن فقط بنصف عقل، كان نصف عقله الآخر مشغولاً بالسؤال الملح الهام: ماذا يفعل كى يعجب الدكتور بسيونى؟ ولما حار هشام فى الإجابة قرر أن يسأل من يعرفهم وبدأ بأمه فحكى لها ما حدث، وألقى عليها السؤال، لكن أمه- لدهشته-- أرجعت كل المشاكل إلى حسد أصحابه لتفوقه، وراحت تلح عليه كل ليلة كى يعبر سبع مرات على مبخرة مشتعلة كانت تحضر لها البخور من ضريح السيدة «سكرة» (وهى من أولياء الله المعروفين فى شارع الأزهر) وكان ضيق هشام شديداً بكل ذلك لكنه إرضاء لأمه وتخلصاً منها.. كان يذعن ويعبر سبع مرات على المبخرة.. ومضى الوقت وبقيت شهور على امتحانه الثانى للماجستير (فرصة هشام الأخيرة) واستمات هشام ليعرف كيف يعجب الدكتور بسيونى، وأخذ يتقرب من كل أستاذ فى القسم ويتحين ساعة صفوه ثم ينفرد به ويسأله فى تودد ضارع: أريد أن أستفيد بخبرتك يا دكتور؟ ماذا أفعل كى أعجب الدكتور بسيونى؟.. وكانوا جميعاً يبتسمون وتجئ إجاباتهم واحدة: أستاذنا الدكتور بسيونى يحب كل من يخلص فى عمله ويجتهد.. وكان هشام يعرف أنهم يكذبون.. وبدأ هشام بعد ذلك يسأل زملاءه فى الأقسام الآخرى.. كان يدخل قسم الأشعة أو يمشى إلى قسم

الباثولوجى، ويبحث عن زميل دراسة قديم، ويلقى عليه السؤال، وشيئاً فشيئاً.. بدأ هشام يعرض مشكلته على أطباء لا يعرفهم، كان يقترب منهم ويبتسم ويعرفهم بنفسه ثم يعرض الأمر ويلقى بالسؤال.. «ماذا أفعل لأعجب الدكتور بسيونى» ولا يعرف أحد بالضبط كيف عثر هشام على الإجابة، لأن ما حدث بعد ذلك حدث فجأة.. ففى يوم الأحد، دخل هشام كعادته ليعرض على الدكتور بسيونى قائمة العمليات، ولم يكن الأمر يستغرق بضع دقائق فى العادة لكن هشام تأخر هذه المرة... وتأخر.. لدرجة أن أطباء القسم- بعد ساعة من دخوله- أخذوا يتهامسون فى قلق ودهشة، وخرج هشام أخيراً.. وكان وجهه يعكس تعبيراً غريباً.. وهو خليط من الألم والإنهاك والراحة، ولم يعرف أحد ما جرى بين هشام والدكتور فى ذلك اليوم، لكن أحداً أيضاً لم ينس لقاءهما هذا لأنه كان بداية التحول، فقد صار هشام بعد ذلك يدخل إلى الدكتور يومياً ويقضى معه وقتاً طويلاً بل أصبح الدكتور يبعث فى طلبه إن لم يجده، وقد أذيع فى القسم - بعد أسابيع- أن الدكتور قد أخذ هشام ليساعده فى العيادة (وهذه لم يفعلها الدكتور بسيونى مع نائب من سنين) وصار هشام بعد ذلك وحده المختص بمواعيد الدكتور بسيونى وأحواله، فإذا أردت أن تعرف فى أى مستشفى يجرى الدكتور عملية الغد، أو إذا كان مزاجه يسمح بأن تعرض عليه طلبك، بات عليك أن تسأل هشام وحده دون سواه، ولم يعد هشام مضطراً لتحمل الإهانات من أحد، لسبب بسيط هو أن أحداً لم يعد يهينه.. بل إن الجميع- الكبير والصغير- صاروا يتلطفون فى معاملته حتى الدكتور منصور بات يتعمد أن يلقاه كل صباح ويحييه، بل طلب منه أكثر من مرة أن يساعده فى عملياته، لكن هشام كان يعتذر بأنه مشغول تماماً مع «الباشا» (يقصد

بسيونى) فكان الدكتور عندما يسمع ذلك يهز رأسه وكأنه يقدر تماماً مشاغل هشام.. ولم يلبث هشام أن اشتهر بأنه نائب حازم، لا يعرف التهاون في حق العمل، فكان يخصم أياماً لأية حكيمة تخطئ بعد أن يلومها ويوبخها، وإذا جاء الخطأ من طبيب كبير فى القسم كان هشام ينظر إليه ويبتسم (فى أدب وقوة) ويسأله: هل تظن أن الباشا يرضيه أن تفعل ذلك؟ (كان هذا السؤال يبعث الإضطراب فى أشد الأطباء تماسكاً وصرامة).. ولما تقدم هشام لإمتحان الماجستير فى المرة الثانية. لم ينكفئ على الكتب كما فعل من قبل، لكنه نجح وجاء ترتيبه الأول، وقبل أن تعلق النتيجة هنأه الدكتور بسيونى قائلاً «مبروك يا حلوف طلعت الأول» وابتسم هشام وانحنى، وبدت حركاته وابتسامته هذه المرة من نوع جديد مختلف وقال «كله من فضلك يا باشا».

وأحدث الزملاء والأساتذة جلبة شديدة فى تهنئة هشام، ولما جاء موعد تعيينه أعلنت إدارة الجامعة أنه لا توجد وظائف شاغرة.. وكانت هذه مشكلة كفيلة بتحطيم مستقبل هشام لكنه ما أن علم بالأمر فى الصباح الباكر حتى أمسك بسماعة التليفون وطلب الدكتور بسيونى فى المنزل (وهذه لم يجرؤ عليها أحد من قبل) وتفهم الدكتور بسيونى الأمر واتصل بالمعنيين وقبل أن ينتصف النهار، تلقى هشام نبأ تعيينه مدرساً مساعداً بقسم الجراحة العامة.

حدث هذا من عامين أو أكثر.. والدكتور هشام الآن - تحت إشراف الدكتور بسيونى- مشغول بإعداد رسالة الدكتوراه، والحق أننا- زملاء دراسته القدامى - نباهى دائماً بما وصل إليه، وكثيراً ما نزوره فى قسم الجراحة ونقضى معه وقتاً جميلاً نتحادث ونسترجع الذكريات وبرغم بشاشته فى لقائنا، برغم حبنا له واعتزازنا به، فإننا أحياناً ما نشعر بأن شيئاً فى صديقنا القديم قد تغير، لكننا سرعان ما نطرد عن أذهاننا هذا الخاطر .

٣ إنا أغشيناهم

«من منا لا يعرف الأستاذ جوده..؟ لا شك أن معظمنا يعرفه.. فالذى لم يزامل الأستاذ جوده فى العمل أو الدراسة لا شك قد صادفه فى زحام الأتوبيس أو هو بالتأكيد شاهده وهو يتأبط كيساً كبيراً من النايلون، ويفض مشاجرة نشبت فى طابور الجمعية.. أو لعله استمع إلى المحاضرة الكروية التى تعود الأستاذ أن يلقيها فى المقهى مساء الجمعة من كل أسبوع.

على الأقل.. لابد أن يكون أحدنا قد شهد الأستاذ جوده فى رحلته الصباحية عندما يصطحب أطفاله الثلاثة يوصل كل طفل إلى مدرسته.. ثم يهرع هو إلى وزارة التخطيط حيث يعمل موظفاً بإدارة المتابعة..

على أية حال.. أنا أكتب فقط للذين يعرفون الأستاذ جودة.، إذ أن الذين لم يعرفوه تظل أفهامهم دون المعانى».

●●●

لم يخجل قط من حذائه.. كان مصنوعاً من القماش لكنه كان يزعم دائماً أن هذا النوع من الأحذية يريح قدميه، بل كان الأستاذ جوده أحياناً يتعجب على الملأ كيف يتحمل الناس أحذيتهم الجلدية فى هذا القيظ..

ويفضل جهود يثينة زوجته كانت بنطلوناته تبدو دائماً أقرب للأناقة.

المشكلة كانت فى القمصان .. كان الأستاذ جوده يملك ثلاثة قمصان يبدلها على مدار الأسبوع، وكان القميص الأبيض مهترئاً.. ولو كان مقطوعاً لقدر الأستاذ أن يستغنى عنه، لكنه كان مهترئاً والاهتراء هو تلك الخشونة التى تصيب القماش البالى، الخيوط الصغيرة التى تبرز وتتدلى من منظومة النسيج وفى بعض الأيام الرمادية المنقبضة كان الأستاذ جوده يضطر لارتداء قميصه الأبيض، وكان الخميس الماضى أحد هذه الأيام..

وفى ذلك الصباح تغير سلوك الأستاذ جودة تماماً.

قد يبدو هذا مبالغاً فيه ولكن للذين يجهلون تأثير قميص مهترئ على سلوك المرء أقول إن الأستاذ جوده عندما حيا زملائه فى ذلك الصباح كان صوته خافتاً، وعندما طلب قهوته الصباحية كان مهذباً فوق العادة فقال «لو سمحت يا برعى قهوة مظبوط» بدلاً من صيحته اليومية «قهوة مظبوط يا برعى».

وأقول إن الأستاذ قد قضى معظم النهار وراء مكتبه وتشاغل كثيراً بقراءة ملفات لا أهمية لها، ثم إنه كان يرد باقتضاب على دردشة زملائه وكان يجد نفسه أميل لموافقة محدثيه على آرائهم.. حتى كرة القدم- حديث الأستاذ المفضل- لم يثر اهتمامه فى ذلك الصباح. كان الأستاذ يحس بنفسه ضئيلاً ومن فرط حرجه كان لا يجد مكاناً ليديه، فتارة يضعها على المكتب وتارة يلقى بهم جانباً وأخيراً.. عقد الأستاذ يديه على صدره وظل هكذا إلى النهاية. ولا يدرى أحد لماذا استسلم الأستاذ لرغبة عارمة جعلته يفحص ملابس زملائه بعناية، وعندما كان يلمح مظهر أحدهم الرث كان الأستاذ يستشعر راحة خفية أثمة.

كان يوماً ثقيلاً بحق وكان من الممكن .. أقول كان من الممكن أن ينقضى النهار بغير أن يحدث ما يزيد الأستاذ هماً وألماً، ولكن يبدو أن قانوناً شريراً يحكم هذا العالم ففى حوالى الساعة الواحدة دخل إدارة المتابعة شاب أنيق وسيم لا يتعدى عمره الثلاثين، وتوجه الشاب رأساً إلى مكتب الأستاذ جوده، كان يحمل أوراقاً يريد أن يختمها- وختم الأوراق وهو تقريباً عمل الأستاذ جودة الرئيسى- وكما يفعل دائماً أخرج الأستاذ الختم من الدرج

واستعد لختم الأوراق.. وقد فكر الأستاذ جوده كثيراً- بعد ذلك- فيما فعله الشاب وخرج بالتحليل الآتى: إن هذا الشاب ينتمى لنوع من الرجال يحملون طابعاً أنثوياً مبهماً، طابعاً لزجاً لا نلحظه للوهلة الأولى لكنه لا يلبث أن يبرز فجأة عندما يسأل الواحد منهم عن أسعار القماش أو يفاخر بمهارته فى الطهى وشراء الفواكه، أو يقضى وقتاً أطول من اللازم فى تلميع نظارته مثلاً. المهم.. فرغ الأستاذ جوده من ختم الأوراق بسرعة لكن الشاب كان لطيفاً ودوداً - كعادة الرجال من ذلك النوع- وتدفق حديث عذب بين الشاب والأستاذ استغرق بضع دقائق وهم الشاب بالانصراف فاستبقاه الأستاذ جوده بحرارة، وجلس الشاب وقد اكتست ملامحه بغلاف حميم صادق وأعطى الأستاذ سيجارة مستوردة فقبلها الأخير ممتنا وأضاف التدخين لذته إلى الجو فتسرب أحساس دافئ إلى قلب الأستاذ جوده ولم يعد يشعر بقميصه، وأبعد يده عن صدره ووجد لهما مكاناً بجوار المقعد، ثم إمعاناً فى إظهار الود.. قام الأستاذ وتظاهر بالبحث عن الساعى ليطلب شيئاً «لسعادة البك».. وفجأة.. إنتابت الشاب حالة من حالاته الأنثوية فصاح «لحظة واحدة يا جوده بك» قام الشاب من مقعده واقترب برأسه من الأستاذ وأخذ يحدق فى قماش القميص ثم- بدون أن يتكلم- مد يده، بأصابع نحيلة مدربة قطع خيطاً من خيوط القميص الأبيض، ثم نظر إلى الأستاذ جوده، وابتسم إبتسامة بريئة..

لم يقصد الشاب شيئاً. كان من عادته أن يمد يده إلى ملابس الناس يربط زرا مفكوكاً أو يقطع خيطاً زائداً، كان يحب أن تكون كل الأشياء فى صورتها اللائقة. لم يكن يطيق بحال أن يترك ياقة معوجة أو يسمح بكرافتة مشوهة التكوين.. بل كان أحياناً عندما يلمح ورقة شجر صغيرة ملتصقة

بشعر محدثه- أياً كان من يحدثه- كان على الفور يمد ذراعه ويجذب الرجل من رأسه، ويظل يفتش بأصابعه فى رأس الرجل حتى يلتقط الورقة المذنبة ويلقى بها بعيداً وعندئذ فقط.. كان يتنهد فى راحة ويسأل محدثه فى لطف جم: «حضرتك كنت بتقول إيه؟».

كان الشاب من ذلك النوع. لم يكن يتوقع أن خيطاً تافهاً مقطوعاً من الممكن أن يحزن أحداً. والحق أن الأستاذ جوده لم يبد تأثراً يذكر أمام الشاب، ولكن الذى حدث بعد ذلك... أن الأستاذ عندما أنتظر الأتوبيس طويلاً، عند رفع صحيفته اليومية ليحجب الشمس عن رأسه الأصلع، عندما تمكن- بخبرته- من أن يقفز ويحشر جسده البدين فى العربة المكتظة.. كان شعور ثقيل يجثم على صدره، وشيئاً فشيئاً سالت هموم الأستاذ وتدفقت، ثم انهالت بشراسة، هو فى الخامسة والأربعين موظف بإدارة المتابعة بوزارة التخطيط، عمله الأساسي أن يطبع الختم على الأوراق، أوراق كثيرة علمته السنون أنها بلا فائدة أو خطورة.

وكثيراً ما يلقى الأستاذ زملاء دراسته فى سيارة فارهة أو يقرأ عنهم أخباراً فى الصحف وعندما يلقى الناجحين المتألقين.. كان دائماً يتمنى فى داخله أن يعامله أحدهم بصلف ووقاحة، أن يسخر منه أحدهم أو يهزأ من فقره وفشله، أن يعطيه أحدهم مبرراً معقولاً ليعلن حقده عليهم. ولكن ذلك لم يحدث قط. بلطف وأدب جم كانوا يعاملونه. يتبسطون معه فى الحديث، يضحكون كثيراً لدعاباته، ينصتون إليه باهتمام.. تماماً كالسلطان الطيب الذى يوقف موكبه العظيم، ويهرع مشفقاً إلى طفل يبكى أو أرملة فقيرة. وهكذا أذعن الأستاذ لهمومه تماماً، ولابد أن أؤكد أن قصة كشك السجاير كانت قصة طريفة، وأن الأستاذ تعود أن يحكيها فى المقهى ليضحك

أصدقاءه، وأنهم كانوا جميعاً يحبون هذه القصة وكثيراً ما طلبوا منه أن يعيدها عليهم، وكان حينئذ يحس بنشوة حقيقية فيأخذ نفساً طويلاً من السيجارة، ثم يقصها من جديد وأكسبته الإعادة مرانا فكان يركز ببراعة على مواطن الفكاهة، فيشتد طرب أصدقائه وتصخب ضحكاتهم، وكان الأستاذ دائماً يضحك معهم،

ولكن هذه المرة، تذكر الأستاذ قصة كشك السجاير فلم يجد فيها ما يضحك. بل إن شعوراً من الخجل والأسى انتابه وهو يسترجع يوم أقنعته زوجته بأن أصحاب الملايين بدأ معظمهم ببيع السجائر والحلوى، وتذكر الأستاذ كيف سعى وألح في سعيه حتى حصل على كشك سجاير في ضاحية من ضواحي القاهرة، كيف كان يخرج من عمله ليقف فى الكشك محاطاً بخراطيش للسجائر وعلب البسكويت، وكيف كان الكشك- المصنوع من المعدن- يلتهب ثم يتوهج تحت سخونة الشمس.. والأستاذ جودة بداخله، ينتظر الزبائن والثروة.

وأخيراً تذكر الأستاذ كيف اكتشف- بعد ثلاثة أشهر كاملة- أنهم خدعوه وأن المنطقة بلا زبائن.. وعندما جرفته الذكريات إلى ذلك اليوم، كان قد وصل إلى بيته.

لم يلحظ أحد فى البيت ضيقاً على وجهه. ما أن دخل حتى خلع ملابسه ثم داعب أطفاله كالعادة وكما يحب شريف -أصغرهم- أمسكه الأستاذ من قدميه الصغيرتين ورفعه حتى لمس السقف بيديه، وجعل يكرر هذا حتى انبعثت ضحكات الصغير السريعة المتلاحقة ثم عرج على المطبخ فتعجل الطعام ومازح زوجته كثيراً حتى أنه قرصها أكثر من مرة. كان طبيعياً تماماً.

شئ واحد فعله الأستاذ كان غريباً. حدث هذا بعد الغداء، عندما أوى مع بثينة إلى الفراش ليناما قليلاً. كان الجو حاراً خانقاً، وكان الأستاذ وزوجته يتصببان عرقاً وبالرغم من ذلك، وبالرغم من أنه لم يتعود أن يلتقى بها فى الظهر، إلا أنه طلبها فى ذلك اليوم وكان طبيعياً أن ترفض. «تعبانة يا جودة والدنيا حر».. لكن الأستاذ ألح وأصر حتى أذعنت فى النهاية. واندفع الأستاذ جوده فى لقاء حار عنيف، واستغرق تماماً وانهمك وجاء أداؤه قوياً غزيراً، وكانت بثينة تعرفه. هو لا يكون كذلك إلا إذا كان سعيداً جداً أو حزيناً.

وعندما فرغ الأستاذ، تكوم على جنبه منهكاً ولم يلبث أن غطى رأسه بالوسادة، ولكنه لم ينم، ومرت بضع دقائق من الصمت. وغير الأستاذ من وضعه فى الفراش أكثر من مرة، لكنه أيضاً لم ينم. وعندما أفلتت منه تنهيدة صادقة، كانت بثينة قد عزمت على التدخل.

- «مالك يا جوده»؟

كان يود أن يحكى عن أشياء كثيرة ولهذا لم يقل شيئاً.

- أنت مش عايز ترد ليه؟.. ما هى مش معقوله يعنى أنى حانام واسيبك متضايق كده.

- «مظهرى يا بثينة.. مظهرى ما بقاش لايق أبداً».

فى البداية لم تسمع، ولما أعاد عليها الجملة لم تفهم تماماً.

- «إن جيت للحق أنا مش فاهمة».

- «باقولك هدومى.. هدومى بقت وحشة أوى.. خصوصاً القمصان..

القميص اللى كنت لابسه النهارده كان فضيحة».

كان يتوقع منها أى جواب، لكنه لم يتوقع أبداً أن تضحك. ضحكت بثينة. ظلت تضحك حتى اهتز السرير تحتهما. وتحولت دهشة الأستاذ إلى حنق شديد فصرخ:

- «أنتى بتضحكى على إيه؟.. باقولك ما عنديش هدوم ألبسها».

- عشان تعرف قيمة مراتك بسبوسه»؟

لم يفهم الأستاذ، واستمر الصوت منتعشاً:

- «دا أنت ربنا بيحبك اللي اتجوزت واحدة زيّى».

- «إيه هو ده».

- يا أستاذ جوده يا محترم.. أنا عارفه من زمان إن ما عندكش قمصان. وعشان كده عملت جمعية.. ويوم الخميس الجاى إن شاء الله.. حنسافر مع بعض بورسعيد ونشترى الحاجة اللى نقصاك.. فهمت بقه؟

من الخميس إلى الخميس.. أيام ملونة منفعلة.. لكن الأستاذ جوده رجل عاقل، كان يحلم بيوم الخميس هذا صحيح، ورغماً عنه كانت ابتسامة حنونة شقية تقفز إلى شفتيه عندما يرى نفسه وهو يتجول فى ردهات الإدارة بقميصه الجديد الأنيق، هذا صحيح أيضاً.. لكنه فى نفس الوقت، كان يدرك جيداً أنه سيدفع لمدة عام، سيظل عاماً كاملاً يقتطع جزءاً من مرتبه ثمناً لهذا اليوم ولذلك.. فكر الأستاذ فى كل شئ لم يترك شيئاً للصدفة. ماذا سيشترى من بورسعيد ؟ أين سيذهب بالضبط؟ كيف سيتعامل مع رجل الجمرك؟ بل.. وفى أى جيب سيضع نقوده وهو ذاهب؟ عشرات التفاصيل

الدقيقة، فكر فيها الأستاذ وقتلها بحثاً حتى أصبح كل شئ جاهزاً فى رأسه و بقيت ساعة التنفيذ.

فى صباح الأربعاء أعلن الأستاذ لزملائه فى إدارة المتابعة أنه لن يأتى غداً، وعندما سألوه عن السبب، راح يقلب فى الملف الموضوع أمامه على المكتب ثم قال من طرف فمه وكأن الأمر لا يعنيه:

- «لا والله.. الحقيقة أصلى بافكر أروح بور سعيد بكره.. ».

وبعد أقل من نصف ساعة، كان خبر ذهابه إلى بور سعيد قد ذاع بين الموظفين، وانهالت الطلبات على الأستاذ، طلبات من كل نوع .. قمصان.. جوارب.. أدوات تجميل. وكان الأستاذ يعلم جيداً أنه لن يشترى هذه الأشياء، ولكنه بالرغم من ذلك لم يرفض شيئاً من أحد، كان يستمع إليهم ثم يقول بلهجة مهمة أوحشته كثيراً:

- «أن شاء الله .. ربنا يسهل وافتكر ».

وكم كان سعيداً عندما دخل إلى مكتب الأستاذ علوبة- مدير الإدارة- وسأله إذا كان يريد شيئاً من بورسعيد.

وتزايد سرور الأستاذ عندما قال له رئيسه بصوت لين جميل: «طبعاً عاوز سلامتك يا جوده.. الحقيقة فيه نوع معين من الشكولاته المدام بتحبه قوى.. أنت عارف الستات يا جودة.. » ثم أرسل علوبة ضحكة خفيفة أتبعها بنحنحة قوية أعاد بها وقاره.

كان الأستاذ جوده شخصاً مهماً فى يوم الأربعاء ولكنه فى الليل عندما دلف إلى فراشه، انتابه إحساس غامض، إحساس أحمق بغير منطق أو

سبب، أوحى له بأنه لن يذهب إلى بورسعيد. كان كل شئ جاهزاً. نقوده معه حتى الأسعار عرفها ودرسها. وغداً يذهب.. ماذا يمنعه؟.. لكن النزعة السوداء ظلت توسوس له، وبصعوبة جمة تخلص الأستاذ من هواجسه ونام. وعندما استيقظ فى الصباح، اعترته بعض الرهبة وهو يعد النقود للمرة الأخيرة، ثم طوى الرزمة بعناية وأدخلها فى جيب البنطلون، وتأكد من وصولها لقاع الجيب. وعندما أخذ الأستاذ وزوجته مكانهما فى الأتوبيس المتجه إلى بورسعيد، تمتمت بثينة بقراءة فاتحة الكتاب. وما أن وصلا إلى بورسعيد حتى بدأ الأستاذ فى تنفيذ الخطة الموضوعة.

كان قد دون الأشياء المطلوبة فى ورقة صغيرة، أما أسماء المحلات فكانت مسجلة فى ورقة أخرى منفصلة، وبفضل هذه الورقة لم يتجول الأستاذ وزوجته كثيراً، وقبل أن ينتصف النهار كانا قد فرغا من الشراء.

بضع أدوات منزلية لبثينة: أما الأستاذ جوده ، فكان قد حصل على أربعة قمصان جديدة، كان أحدهما مقلماً بخطوط طولية حمراء وبيضاء، وهذا القميص بالذات كان أنيقاً بشكل مؤثر.

وعندما توارى الزوجان فى مدخل إحدى العمارات الأنيقة، خلع الأستاذ قميصه الأبيض- للمرة الأخيرة- واستبدله بقميص جديد، بينما نجحت بثينة فى أن تخفى قميصين آخرين فى طيات ملابسها، وهكذا بقى قميص واحد أمسك به الأستاذ وصار الاثنان مستعدين لدخول الجمرك، وكان عليهما أن يقفا فى مؤخرة طابور طويل من المشاة فى انتظار التفتيش.

عندما اقترب دورهما من موظف الجمرك، عندما أصبحا على بعد خطوات من التفتيش مالت بثينة على زوجها وهمست فى أذنه، ولم يلبث

صوت الأستاذ جوده أن خرج وجلا مضطرباً، بسمل الأستاذ أولاً.. ثم جعل يردد فى خشوع صادق- وهو يحمل قميصه الجديد:

«وجعلنا بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا. فأغشيناهم فهم لا يبصرون. فأغشيناهم فهم لا يبصرون. فأغشيناهم.. فهم لا يبصرون».

٤

سيدي المسئول
عن تكييف القاعة

سيدى المسئول عن تكييف القاعة.. احترس الآن ابدأ الحكاية:

وحكايتى يا سيدى المسئول حكاية عربية جلفة لا تعرف آداب السلوك. كل السادة والسيدات الحاضرين فى القاعة سوف يصيبهم الغضب عندما أتكلم..سوف يشتعل الغيظ فى قلوبهم ولذلك، أرجوك، يا سيدى المسئول عن تكييف القاعة أن تضغط من حين لآخر على مفتاح التبريد.

وأنت يا سيدى مهندس الصوت...

عندما ابدأ الكلام، حاول أن تصرف عنى انتباه السامعين ، أطلق عليهم يا سيدى مزيداً من الموسيقى الصاخبة.

أما أنت يا عزيزى البهلوان.. فعليك بإضحاك من يغضب منهم. انبطح على الأرض أو أمش على يديك. وإذا استدعى الأمر يا بهلوان، اطلق من حنجرتك نهيقاً كالحمار.. المهم، أن تعم الفرفشة ويتبدد الغضب.

سيداتى سادتى

أصل الحكاية هو سوء الحظ ، النحس اللعين الذى يُخرج إلى الدنيا طفلاً بريئاً بجسد أو وجه مشوه، القدر الغاشم الذى يفجع الأب الطيب بموت ابنه الشاب، الذى يزرع السرطان فى جسد الرجل الناجح.

قدر أسود كهذا، هو الذى جعل «جنين» مدينة عربية.. ولو أن مدينة كجنين وجدت فى سويسرا، لو أن حدائق البرتقال فيها كانت مغطاة بجليد أوروبا الناصع، لو أن مساجدها الكثيرة كانت كنائس كاثوليكية، لو أن أهل جنين خلقوا من جنس أبيض راق.. أستغفر الله العظيم، لو لم تعرف جنين تلاوة القرآن وإقامة الصلاة لما حدث لها ما حدث.. لكن القدر الأعمى خلق

جنين مدينة عربية ولم يكتف بهذا الهوان، فجعلها أيضاً مدينة فلسطينية، ثم - إمعاناً فى الذل - تخير لها القدر مكاناً على الضفة الغربية، تماماً على خط الحدود مع الدولة اليهودية المكرمة. ويشهد الله العلى القدير، كما تشهد تقارير المخابرات أن أحداً فى جنين لم يكن من أهل الشغب.. مدينة صغيرة جنين وبيت كبير، والناس ودعاء.

فلاحون طيبون يتقنون زراعة البرتقال ، ولا يعرفون غيرها. يحرصون على صلاة الجمعة ويعشقون العرقى.

ولم يحدث قط، أن سُمع لأهل جنين صوت عال أو كلمة قبيحة.. حتى فى أيام الحمق عندما كانت الأفكار السوداء عن إسرائيل تسرى كالسموم فى شرايين المنطقة العربية؛ عندما كان العرب يدمنون الحديث عن تحرير فلسطين والاشتراكية والقومية... إلى آخر هذه السخافات.

حتى فى تلك الأيام ظلت جنين كما هى، وظل أهل جنين- كما كانوا دائماً- منصرفين إلى البرتقال، لا يعرفون سواه، يزرعونه ويحصدونه.

والحق أن هذا السلوك الطيب قد أثر كثيراً فى قلوب المسئولين اليهود، حتى أنهم فكروا أكثر من مرة فى مكافأة عظيمة يقدمونها إلى جيرانهم الودعاء.

وكاد هذا أن يحدث فعلاً.. لولا الوقائع المؤسفة، المؤسفة للغاية، التى شهدتها جنين فى فصل الربيع من عام ١٩٦٧.

سيدى المسئول عن تكييف القاعة .. درجة من التبريد.

سأقول ما حدث دفعة واحدة.. فى شهر مايو ١٩٦٧ قررت جنين أن

تدخل الحرب. وتصوروا أنتم يا حضرات، زارعو البرتقال يحملون السلاح ليحاربوا، ويحاربوا من؟ دولة إسرائيل... لا شك هو القدر الساخر الذى يدفع المرء إلى حتفه باختياره.

.. انبطح يا بهلوان.

يبدأ يونيو ٦٧ والأزمة تشتد وتستحكم، والحرب حديث دائر. وفى يوم مهيب كالشمس شامخ كالجبل، جذب الجيش الأردنى نفساً عميقاً، ثم طوح بذراعه القوية.. واقتحم «جنين». وهكذا كانت الخطة، لأن جنين فى المواجهة لابد أن يحتلها الأردنيون ليدافعوا عنها.. ولن تنسى «جنين» هذا اليوم أبداً «مرحباً بأبطال الأردن » اللافتات العريضة تتدلى فى زهو وتنتظر. ومجالس الرجال منعقدة فى الطرقات الضيقة، جلس بعض منهم وعجز البعض الآخر عن الجلوس من فرط اللهفة، فهم يصعدون إلى الربوة العالية ويرجعون بأنباء منفعلة، «باقى نصف ساعة ويصل الأبطال».. «لعلهم الآن على المشارف» أما النساء، فقد انهمكن فى ذلك اليوم كما لم ينهمكن من قبل، وكيف لا؟ والأبطال قادمون من سفر صعب، لابد وأن يجدوا شيئاً يأكلون وشيئاً يشربون وتمخض هذا الشئ فولد عشرات الشطائر والفطائر والطواجن وكافة فصائل الأطعمة، وصفوفاً طويلة من زجاجات العرقى الرابضة فى أحزمة الخوص.

حتى الأطفال فى جنين، كانوا يترقبون وصول الجيش الأردنى فى شغف عظيم وللأطفال أسبابهم الخاصة، فهى المرة الأولى التى يشهدون فيها جيشاً حقيقياً لحماً ودماً وبنادق، جيشاً تبدو بجواره جيوش مترو جولدن ماير، كمجموعة من اللعب القديمة... والرديئة أيضاً.

ما أجمل هذه الرقصة يا سيدى المهندس.

وصل الجيش الأردنى فى الساعة الواحدة. ظهراً وما أن ظهر الجندى الأول على مدخل جنين، ما أن لمح الناس زيه العسكرى الأخضر وشارته النحاسية اللامعة حتى كانت الإشارة، إشارة سحرية أطلقت المشاعر المنتظرة منذ الصباح- وفى هبة واحدة وآن واحد- اندلعت الزغاريد وانفجر الهتاف والأناشيد والصياح. أمطار صادقة من ورود التحية ألقيت على الرؤوس.. جاء الأبطال ليدافعوا عن جنين، وجنين كلها تحتضن الأبطال ، الكل يغنى ويلوح ولا يخجل أحد من إحساسه فاللحظة صادقة لا تعرف الوقار، حتى المشايخ والوجهاء كانوا يهتفون، كل فرد فى جنين كان حريصاً على أن تصل تحيته- هو بالذات- إلى المقاتلين، وكأنها التحية الوحيدة، والحق يقال.. كان الجيش الأردنى جديراً بهذه الحرارة، تشكيلات عسكرية مهيبة، أسلحة سوداء غاضبة، والرجال رجال.. أجساد ضخمة مفتولة، وشوارب عربية يقف عليها الصقر مطمئناً، كان المشهد كله ينطق بالقوة. ولما ظهرت أول دبابة صار الأمر فوق الاحتمال، فاندفع الناس يتسلقون جدران الصلب، وانفتحت رأس الدبابة وأطل المقاتل ضاحكاً يتلقى العناق والقبلات.

ولم تمض بضع دقائق حتى تمزق الطابور العسكرى تماماً، وانجرف الجنود مع الأهالى فى مظاهرة شعبية عارمة، وتسابقت الأعناق مخلصة لتحمل أبطال الأردن وطافت الجموع بطرقات جنين ثم انتهت إلى صحن الجامع الكبير (أكبر مساجد جنين) ولم يكن خطيب الجامع ينقصه الحماس، ووجد الرجل نفسه فى مناسبة لا تتكرر فنظم الصفوف، وأقام صلاة خاصة لم يهتم أحد بصحتها الدينية، ثم ألقى على الجماهير خطبة مشتعلة ظل- بعد ذلك- يذكر مقاطع كاملة منها لأولاده.. تحدث الخطيب عن المهاجرين والأنصار،

ثم انتقل إلى الجهاد فى الإسلام، وعندما وصل إلى الآية التى تقول «إن تنصروا الله ينصركم».. كان الأمر قد أفلت من يده وانقلبت جماهير المصلين إلى بركان حقيقى يهدر بالهتاف والتكبير.

.. كان يوماً مخلصاً فى حياة جنين، وفى المساء لم يفتر الحماس ولكن هدأت قوته، فاجتمع القائد الأردنى وكانوا يسمونه الضابط عظيم (هكذا كانت رتبته) اجتمع الضابط عظيم بالمشايخ والوجهاء فى جنين ليبحث معهم ترتيبات الدفاع عن المدينة، وتحدث المجتمعون عن بضعة مدافع قديمة موجودة على الربوة العالية، ثم انفض الاجتماع سريعاً، وخرج المشايخ بوجوه راضية، يطمئنون الناس ويبشرونهم بالنصر المبين..

وهكذا- يا حضرات- عاشت جنين يوم ٤ يونيو ٦٧، فى تلك الليلة- ليلة ٥ يونيو- نعم أهل جنين وكان لابد أن ينعموا بنوم هادئ منتظم الأنفاس.. ولما اندلعت الحرب فى الصباح، تلقى الناس أنباء القتال بروح عالية وتفاؤل راسخ وهل كان لأحد أن يفزع؟.. هل كان لأحد أن يفكر- لحظة واحدة- فى نصر منقوص، أو تراجع؟ .. كيف واليوم نصر؟. اليوم نصر - يد الله فوق أيدينا - سنسحقهم واليوم أيضاً، ستبيد دولة اليهود، ويتشتتون من جديد فى أنحاء الأرض .. واقع هذا لا ريب فيه وإلا..؟ فماذا يعنى عبد الناصر؟.. ماذا يعنى أبطال الأردن، المتعطشون لتمزيق اليهود؟. بل وكيف نفسر بيانات القاهرة وطائرات إسرائيل المتهاوية كالذباب؟. هل يعنى كل هذا إلا شيئاً واحداً.. وساعة كاملة فى صباح ٥ يونيو، من التاسعة إلى العاشرة، ساعة وردية- من رحمة الله- انتصرت فيها القلوب على إسرائيل.. وأى نصر كان، نصراً نهائياً قاطعاً، نصراً قديماً عزيزاً ضم رائحة حطين وسيف خالد إلى تكبيرات الفتوح الأولى.. وتمر

لحظات السعادة كالأحلام، سريعاً. وفى جنين تدق الساعة العاشرة فيحين وقت الذهول.

اضغط على مفتاح التبريد إلى النهاية يا سيدى..يكاد العرق يتصبب.

بدأ الأمر بكلمة تافهة، شائعة سخيفة لا يمكن لأحد أن يرددها بغير أن تلحقه السخرية ولكن- ياللعجب- سرت الشائعة وامتدت واشتدت حتى تحول الهمس فى طرقات جنين إلى أصوات واضحة مشفقة.. «الأردنيون ينسحبون».. وظل الناس حتى اللحظة الأخيرة بين مصدق ومنكر ومتسريب حتى ظهر الضابط عظيم، وجمع من تيسر من المشايخ، ثم أخبرهم بالأوامر الجديدة.. «سينسحب الجيش الأردنى من جنين». ولما سأل الناس عن السر، أجاب فى اقتضاب «تغيرت خطة الدفاع»

- ومن يحمى جنين يا سيدى؟..

وهنا كاد صبر القائد أن ينفد.

- أؤكد لكم أننا لسنا بلهاء، نحن نعرف جيداً ما نفعله، سننسحب نحن ثم تأتى إليكم فرقة كاملة من الجيش العراقى، لتدافع عن المدينة.

وللمرة الثانية والأخيرة. انتظم الأردنيون فى طوابيرهم الصارمة، وحملوا أسلحتهم الغضوب.. ثم بدأوا فى الانسحاب.

ونقول ما لنا وما علينا. فبفضل براعة الضابط عظيم وخبرته الطويلة ، تم الانسحاب من جنين بسرعة ونشاط ملحوظ، ووقف أهل جنين ينظرون، واستسلموا جميعاً لصمت عميق، كان مريحاً وبليغاً فى آن واحد، وكانت جنازير الدبابات المنسحبة تحتك بالأرض فتحدث حشرجة كئيبة، ومن حين

لآخر (شر البلية) كانت نسمة عابثة تهب على المنسحبين فتحرك فوق رؤوسهم لافتة عريضة من لافتات «مرحباً بأبطال الأردن».

سيداتى وسادتى

ينبغى أن أؤكد أن حكايتى بريئة من الغرض السيئ والقول المشين، وإذا كان أهل جنين لم يفهموا - حتى هذه اللحظة- لماذا انسحب الجيش الأردنى وتركهم فى صباح ٥ يونيو، فطبيعى ألا يفهموا، لأن للعسكرية أصولها وقواعدها، التى لابد وأن تمتنع عن عقول السذج من زارعى البرتقال.. ومهما حدث أو يحدث ، فحاشا لله أن يكون الضابط عظيم قد كذب أو أخطأ كما يشهد الله أن كل ما تنبأ به الضابط عظيم قد تحقق، تماماً كماتنبأ به. . فلم تمضِ ساعة واحدة على الإنسحاب الأردنى، حتى أقبلت الدبابات العراقية، جاءت لتدافع عن جنين، طبقاً للخطة ولكن يبدو أن خطأ ما قد وقع، فما أن أقتربت الدبابات العراقية من جنين، حتى أطلقت قذائفها.

خطأ يسير يحدث دائماً فى الحروب، جعل الدبابات العراقية تقصف جنين... حتى سوتها بالأرض ، ثم اكتمل الخطأ الهين، فنزل من الدبابات العراقية جنود يهود دخلوا جنين ولم يخرجوا منها إلى اليوم..

وفى مساء ٦ يونيو ٦٧.. عندما عيُن الميجور «ليفى» حاكماً عسكرياً لمدينة جنين أحب أحد المشايخ أن يداعبه، فروى له حكاية الدبابات العراقية، ولما عرف الميجور «ليفى» أن أهل جنين كادوا أن يستقبلوا دباباته بالورود، أخرج من فمه الغليون وشد قامته إلى الوراء، ثم انفجر ضاحكاً حتى سعل ودمعت عيناه.

سيدى المسئول عن تكييف القاعة

سيدى مهندس الصوت

عزيزى البهلوان

أشكركم جميعاً...

ها قد فرغت من حكايتى العربية الجلفة ولا زال السادة والسيدات الجالسون فى القاعة ... ينعمون بالتكييف.

٥ أمـــر إدارى

اسمه بالكامل «عم إبراهيم».. وبرغم الفقر والوجه الشاحب يتدلى كرش مفاجئ من بين البالطو المهترئ.. وبينما يعتبر الكرش فى الأوساط الراقية مرضاً علاجه الرجيم والرياضة.. يرى فيه التجار دليلاً ملموساً على نعمة يرجى دوامها أما الفقراء فتظل كروشهم أوراماً يحملونها بلا سبب واضح.

وبالنسبة لعم إبراهيم فقد أفسد عليه الكرش الوقح كسوة كاملة أعطاها له أطباء المستشفى فى العام الماضى.

وتقول السجلات إن العامل محمد إبراهيم وظيفته.. «عامل نظافة» بمرتب عشرين جنيهاً وثلاثة قروش لا غير .. ولأن عم إبراهيم رجل طيب وبشوش ولأنه كان نظيفاً - والنظافة أهم شئ- فقد اختاره الأطباء لصنع القهوة والشاى بدلاً من عم صالح الذي أحيل للمعاش.

قد تصبح الحياة محتملة أحياناً.. فعندما يتفرغ عم إبراهيم لعمله الجديد (القهوة) و(الشاى) يكسب ما يزيد عن ضعف مرتبه الأصلى.. يستطيع أن يدخن كما يريد.. أن يشترى لأولاده- أكبرهم فى العاشرة- جلاليب وأحذية.. أن يبتاع قطعة صغيرة من الحشيش ليضاجع زوجته طويلاً.. بل استطاع عم إبراهيم - حدث هذا مرتين - أن يستقل تاكسياً بالنفر إذا تأخر عن موعد العمل.

ويعد عم إبراهيم على أصابعه الغليظة «خمسة أعوام من الستر» والستر ألا يتسول الإنسان.. «نعمة نحمد الله عليها».. ومهما فعل فى ليلة الخميس - سهرة زوجته المفضلة- كان عم إبراهيم يحرص على صلاة الجمعة.. وتعود أن يذهب إلى الزاوية نظيف البدن والملبس طيب الرائحة.

وعندما تبدأ الخطبة.. كان عم إبراهيم يدخل رأسه بين يديه ويخشع..

وذات يوم بعد خطبة حارة عن الزكاة أحس إبراهيم بقلق مذنب ثم قرر أمراً فى نفسه.. وتعود بعد ذلك أن يختار مريضاً معدماً من مرضى المستشفى ويصنع له القهوة بالمجان.

كان عم إبراهيم رجلاً طيباً.

●●●

تعود خطيب الزاوية أن يقول «دوام الحال من المحال».

منذ بضعة شهورتسلم العامل محمد إبراهيم أمراً إدارياً بنقله للعمل فى بوابة المستشفى، وقال له رئيس العاملين وهو يسلمه الأمر «مبروك يا إبراهيم.. لقد أصبحت موظفاً بالأمن».. وأحس إبراهيم بهلع غامض.. ويستمر المشهد فيتسلم إبراهيم معطفاً من الصوف الأسود وحذاءً عسكرياً ضخماً ويقف كل يوم على بوابة المستشفى يمنع الزوار من الدخول ويحيى الأطباء الداخلين فى سياراتهم. وخلال الشهر الأول ألحت على إبراهيم رائحة الشاى والماء الساخن.. وكان لابد أن يتسول فأصبح يكثر من الحديث عن مرض أبنائه وتخلفهم فى الدراسة .. وابتسامات الأطباء فاترة «ربنا يعينك يا عم إبراهيم».

وفى الشهر الثانى .. ذهب إبراهيم إلى رئيس العاملين وأنهى توسله بكلمات ثلاث «أريد أن أرجع».. وفى هدوء تمتد يد رئيس العاملين لترفع النظارة عن عينيه ويخرج صوته لعيناً «هذا أمر إدارى يا إبراهيم»..

وتغير إبراهيم كثيراً فى الشهر الثالث.. لم يعد يحيى أحداً من الأطباء الداخلين فى سياراتهم.. تعود أن يجلس على مقعده أمام البوابة ويحكم

قفل معطفه الأسود واكتست ملامح وجهه جموداً وصارت نظراته قوية لا تلين.

ويقول الذين حضروا المشهد إن السيدة العجوز كانت تريد دخول المستشفى لزيارة ابنها المريض.. ولأنه لم يكن مسموحاً بالزيارة فى تلك الساعة من الصباح.. ولأنها ألحت عليه كثيراً .. فقد قام عم إبراهيم واقترب منها.. ونظر إليها ملياً.. ثم انهالت ضرباته.

٦ لحظة الكسر

(١)

صاح بائع الجرائد وتغيرت الإشارة وانطلقت سيارة سوداء مسرعة وكادت أن تدهم سيدة بدينة محجبة، واشتبك زوج السيدة مع سائق السيارة فى مشاجرة عنيفة... ، وكأنه يرى كل ذلك من وراء زجاج سميك بارد، وجوه المارة وضجيج السيارات وألوان النيون على واجهات المحال، كل شئ حوله كان يختلط فى خلفية مشوهة وبعيدة.. كل شئ كان خارجاً عنه. توقف ذهنه فى لحظة واحدة. لم يتجاوزها. لحظة باهتة راكدة تتخلللها غيوم وتهاويم، تماماً كتلك اللحظة التى يمر بها ذهنه قبل أن يغشاه النعاس، فى ذلك الجزء الصغير المتناهى فى الصغر من الزمن الذى يفصل بين اليقظة والغيبوبة.. عندما انتبه كان يعبر «ميدان سليمان» وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة وكان أصحاب المحلات يغلقون الأبواب بصفائح حديدية مستطيلة كلها مطلية باللون الرمادى. لفح وجهه هواء بارد وفكر فى مكان يذهب إليه، تذكر باراً صغيراً فى عماد الدين كان يشرب فيه أيام الجامعة، هناك لن يلقى أحداً يعرفه، استدار ومشى خطوات فى اتجاه البار لكن هاجساً سخر فى ذهنه بأنه يبدو الآن كممثل ردئ فى فيلم لحسن الإمام، أبطأ السير وتردد قليلاً ولكنه عاد وأكد لنفسه. إنه فعلاً يحتاج إلى كأسين وبعض التفكير.

(٢)

الوقت مبكر والمكان خال إلا من بضعة رواد التفوا حول موائد متفرقة وهو دلف بهدوء إلى أقصى القاعة بغير أن ينظر لأحد حتى لا يضطر لإلقاء السلام، والإضاءة ضعيفة وغطاء المنضدة مهترئ وقذر والمكان يفوح برائحة

رطبة تضايقه والنادل نوبى عجوز أسنانه مهشمة ويبتسم بأدب والبراندى الدوبل والترمس والبيبسى تكسر حدة الكحول والكأس الأولى والثانية والثالثة وسرت إليه الدهشة. تملكته. دهشة حقيقية لكنها ليست عابرة كتلك التى تصيبه كل يوم. بل شعور ثقيل بعدم الفهم عرفه من قبل لما رأى الموت أول مرة. يومها كان أبوه ممدداً على السرير تغطيه إلي الصدر ملاءة بيضاء وكان فمه مغلقاً، وعيناه مغمضتين وبدا وجهه عادياً كأنه نائم، الفرق الوحيد بينه وبين النائم كان بعض الإربداد، الإربداد الخفيف للغاية على الوجه الذى لا يمكن أن يلحظ لأول وهلة وقد لا يلحظ مطلقاً، هذا الربداد كان هو الموت، وشعر يومئذ كما يشعر الآن، أحس بأنه لا يفهم وأنه حزين، وأنه هزم فجأة وبغير مبرر، وأن هزيمته ثقيلة وقاسية ونهائية وأن البقايا فى لحظة الكسر تصدر صوتاً عالياً ثم تتناثر مرة واحدة أخيرة وتنتهى.

(٣)

فى الصباح البارد كان ينتظرها، يقف بجوار محطة البنزين ويدخل يديه فى جيوب المعطف ليشعر بالدفء، ويظل يتطلع إلى أول الشارع حيث سوف تظهر وتأتى هى دائماً متأخرة ضاحكة معتذرة ويظل شعرها القصير يهتز وهى تمشى بسرعة، هل يعرف أحد سواه سر تلك الخصلة. الخصلة الصغيرة تماماً التى تتدلى على جبينها تخفى ندبة من أثر جرح قديم. عندما تزوجا قضيا أياماً فى بنسيون رخيص فى الإسكندرية وقالت له وهما عائدان:

- إذا سألنا الأصدقاء سوف نقول أننا نزلنا فى (فلسطين) وأجابها- ضاحكاً- بأن الأغنياء لا يذهبون إلى الإسكندرية فى مثل هذا البرد لأن أمامهم الأقصر وأسوان.

(٤)

هذه الحروف الصغيرة السوداء المتشابكة لها عيون! عيون حقيقية تحدق وتنتعش بالفرح أو تغيم بالحزن وهى الآن تتأمل فى تردد وقلق وشئ ما يتأرجح- بنفس القوة- بين السخرية والإشفاق.

حبيبتى ناهد...

اليوم ٢٠ مايو!! أتذكرين؟! إننى يا حبيبتى...

●●●

لا يتذكر الآن تماماً كيف صعد الدرج ولا كيف وصل إلى شقته لكنه يذكر بوضوح أنه وجد الصالة مضاءة ورأى على المنضدة عشاءً كانت قد أعدته له وغطته بورقة جريدة (وكان فيها صفحة الرياضة) ثم اتجه إلى غرفة النوم وفتح الباب بهدوء وضغط مفتاح النور.. كانت نائمة وكان الصغير قد تكور جسده والتصق بها ودس رأسه بين ذراعيها ومد يده وهزها فأفاقت وابتسمت لما رأته، وأشار لها أن تنهض فنهضت وتبعته إلى الخارج بخطى خفيفة لئلا توقظ الصغير ثم جلست على الأريكة فى الصالة، كانت ترتدى قميص النوم الوردى ذا الأكمام الطويلة وقالت له بنبرة عادية وهى لم تفق تماماً من أثر النوم:

- أزيك... !

ظل صامتا واستدار ومشى ببطء حتى قارب مدخل الشقة ثم عاد أيضاً ببطء وقال فجأة وهو ينظر إلى الأرض:

- ناهد.. إحنا لازم نتطلق!

ونظرت إليه ورأى فى عينيها كل شئ، كانت نظرتها ثابتة مستريبة ومرت لحظة ثم قالت بصوت متماسك (وكأن ما قاله عادى ومألوف ويحدث كل يوم وكل ما يضايقها هو حدوثه المتكرر)

- خير يا سيدى؟!

ودس يده فى جيبه وأعطاها الخطاب (فعل ذلك فوراً وكأنه ينتظر سؤالها وبدت سرعته طفولية على نحو ما) وتمتمت هى بشئ وهى تبسط الورقة المطوية وقرأتها أو أنها تظاهرت بالقراءة لحظات لتمنح نفسها بعض الوقت ثم تمالكت نفسها ووضعت الخطاب بهدوء بجانبها على الأريكة وتنهدت وقالت ما معناه أن نوعاً من سوء التفاهم قد حدث وأن الأمر ليس كما يتصوره وأنه يجب أن يعطيها فرصة لتشرح الموضوع بالتفصيل وبعد ذلك يحكم عليها ثم انقطع كلامها لأنه صرخ فجأة بنبرة عالية محشرجة بدت غريبة له نفسه، قال لها: أنت مومس أو عاهرة أو شئ كهذا لا يذكره بالضبط، وسنحت فرصة أخيرة فرمقته وصاحت بغضب بالغ:

- أنا لا أسمح لك...

وأسكتتها اللطمة الأولى، أصابت رأسها بقوة فمالت وارتطمت بحاجزالأريكة الخشبى الداكن ولطمها على وجهها مرة ومرة أقوى ثم قبض يديه وانهال على وجهها ورقبتها وصدرها وأخذ يركلها بقدميه فى ساقيها العاريتين ولم يتوقف عن الضرب حتى لمح خيطاً رفيعاً من الدم ينسال من الأنف، وتطلع إليها لاهثاً، لم تكن تبكى وأمالت رأسها إلى الأمام ببطء فتدفق الدم على قميص النوم وقالت بعد لحظات بصوت ميت تماماً:

- ممكن أنصرف الآن؟!

لم يرد وكان قد أعطاها ظهره ولم يلبث أن لمحها بطرف عينه وهى تنهض ثم سمع باب غرفة النوم يغلق، ولم يذكر كم مرة أحضرها فى تلك الليلة، ثلاث أو أربع مرات، وفى كل مرة كان يفتح الباب ويضئ النور فيجدها راقدة بجوار الصغير وقد أغمضت عينيها وكان يعلم أنها مستيقظة لكنه مع ذلك كان يهزها وكأنه يوقظها ويدهشه الآن كثيراً أنه كان يوقظها برفق، كان يمد أصبعه ويضغط على ظهرها ضغطة رقيقة وكأنه يوقظها لأمر عادى فى ليلة عادية، ويدهشه أكثر أنها كانت فى كل كرة تفتح عينيها وتلتفت وكأنها تستيقظ ثم تنهض بهدوء وتتبعه إلى الخارج، كانت تستطيع أن ترفض أو تصرخ أو تتشاجر أو تعترض أو حتى توقظ الصغير لكنها لم تفعل، كانت كل مرة تتبعه، تمشى وراءه كحيوان صغير أليف حتى تصل إلى الأريكة فتجلس وتطرق برأسها وبغير أن تتكلم كان يهوى بيدها عليها من جديد وكان جسدها عندئذ يتقلص من الألم وتصدر عنها أنات مكتومة خافتة لكنها لم تكن تبكى، لم تدمع مرة واحدة، لم تكن تتقى ضرباته بيديها، كانت تستسلم له تماماً حتى يفرغ ويبتعد عنها لاهثاً فتنسحب من جديد إلى الحجرة، ومن جديد يدخل إليها ويحضرها ويضربها، وفى المرة الأخيرة، لما جلست أمامه لم يضربها. راح ينظر إليها وأحست هى فرفعت رأسها إليه، كانت نظرتها قد صارت فارغة تماماً وكأنها لا ترى وكانت الكدمات تغطى معظم الوجه وكان بعض الدم متجلطاً تحت الأنف وكان جرح صغير حديث تحت العين قد بدأ ينزف وتراجع هو خطوة واستدار ومشى حتى واجه النافذة المغلقة ثم انحنى فجأة وبدا وكأنه يراقب شيئاً ما على الأرض ثم وضع يده على مقبض النافذة وبسط اليد الأخرى على الزجاج وأشاح بوجهه بعيداً وزم شفتيه محاولاً لكنه فشل وأجهش بالبكاء.

٧ لاتينى ويونانى

«مطلوب مدرسة لغة فرنسية.. لطفل عمره سبع سنوات.. المرتب مائة وعشرون جنيهاً شهرياً.. المقابلة ٦ شارع غالب مدينة المهندسين.. من ٥ : ٧ مساء».

بعد نصف ساعة كادت أن تيأس، ظل سائقو التاكسى واحداً بعد الآخر يعبرونها بنظرة لا تبالى، سادها شعور هو مزيج من الملل والقلق والإرهاق. لماذا يرفضون الوقوف.. ربما بدا لهم ثوبها الأبيض متعالياً بعض الشئ، ابتسمت.. تذكرت مقالاً كانت قد قرأته عن ردود الفعل... من جديد لوحت لتاكسى مقبل، هذه المرة راحت ترجوه بعينيها، للحظة بدا لها ذلك مضحكاً وإن لم يخل من تأثير فقد توقف السائق على الفور.. «مدينة المهندسين - يا أسطى لو سمحت». عندما تحركت السيارة كانت ساعة يدها تحذر من السادسة.

بعد دقائق كان السائق يعبر بها كوبرى الجامعة، نقلت جسدها النحيف حتى جاورت النافذة اليمنى للسيارة، كانت جموع الطلاب تعبر الكوبرى فى الاتجاه المضاد.. لا شك عائدون من إحدى المحاضرات المسائية أو ربما امتدت بهم جلسة الكافتيريا كما كان يحدث كثيراً!، أحست وكأنها تبتسم، انساب داخلها إحساس من الأسى الممتع وهى تسترجع أياماً ووجوهاً.. فى يوم السبت ١٨ أكتوبر منذ خمس سنوات كانت رحلتها الأولى إلى الجامعة.. لا زالت تذكر كيف أيقظها بنفسه ذلك الصباح.. كان «بابا» قد أعد كل شئ.. «أحب أشياءك الصغيرة الفنانة».. كانت تقول له.

يومئذ لأول مرة مذ كانت طفلة.. أراد أن يصفف لها شعرها، كانت نبراته تتعثر خجلاً وهو يطلب إليها، ضحكت وأسلمت له رأسها.... وتظل

تذكر كيف أسرف حينئذ فى تزيين الخصلات حتى اضطرت ضاحكة لإعادة التصفيف ، بينما كان هو يتمتم معتذراً.. «مع السلامة يا أستاذة».. قال لها مودعاً.. واستدارت هى لتنهى لحظة منفعلة.

لم يكن الأب جامعياً، كان الفقر قد ألحقه بعمل مبكر، وطويلاً.. طويلاً.. حلم بيوم حصولها على الليسانس، فلا عجب أن مات قبله بشهور.

لفحتها برودة من الخارج.. مدت يدها وأحكمت قفل الزجاج.. ألقت برأسها وراءً فحف الفستان حفيفاً ذكرها بصاحبته.. جارة لها تعتنق الخير والنميمة.. شرعت تحلل مشاعرها فى تلك اللحظة، ماذا تعنى لها الوظيفة؟ «١٢. جنيهاً شهرياً» جاء رد السؤال حاراً واشتركت فى الإجابة عليه مجموعة من الملابس الداخلية المهترئة.. الجوارب المثقوبة.. وعدد لا ينتهى من أنصاف النعال.. كما كان رد السؤال يمزج دعاء الأم الفجرى الصادق.. بنحيب مقهور استسلمت له أختها الصغرى عقب لقائها الأول برجال الأتوبيسات العامة. لا يعنى لها المال سوى إشباع حاجتهما.. وكانت وحدها رسولتهما إليه، أما هى .. فكان داخلها لا يأبه للأوراق النقدية.

قالت صديقة لها يوماً فى أسف صادق «أفسدتك القراءة» .. ضحكت يومئذ من غرابة الرأى وإن كانت أحياناً لا تراه بالغ الحمق.. لم يفسدها الأدب وإنما أفسد عليها مذاق الأشياء .. هى متعة أكيدة أن تصبو كسائر البنات إلى فيللا وسيارة فخمة يقودها زوج فارع الجسم.. ولا شك أن سرعة المفرمة الكهربائية وأزيز أجهزة التكييف يمنحان سعادة من نوع ما ، حرمها الأدب هذه السعادة، كان داخلها وحيداً.. وحيداً، يوم شهدت حفل زفاف ريفى كادت أن تتقيأ.. كان الجنس يسيل من كل شئ.. بدءاً من حشيش الرجال.. إلى لمزات النسوة.. إلى تطرية الأفخاذ.. إلى طفلة الثامنة التى

جعلت تتلوى شبقاً بعد أن حزمتها أمها فى إعزاز.. الفرح مخلوق وحشى..، سوقى الملامح، اندفاعة عارمة، تجيش فى كل من خلق وما خلق. أما الحزن فكان شفافاً نبيلاً كالليل.. كالشتاء كانت تعشقه وكان يسمو بها.. يرفعها إليه.. وعندما تنساب تاسعة بيتهوفن.. كانت تغمض عينيها، وتنتظره.. وكان يأتيها خالداً.. جدولاً عذباً يترقرق إليها بين صخور الجهل والقسوة.

انتبهت على صوت السائق «ها هو رقم٦» .. منزل من ثلاثة طوابق حديث العهد كما أكدت أكوام الرمال ومصفوفات الطوب الأحمر.. كانت الثقة بنفسها أوهى من أن تعتد بها فى موقف كهذا لكن هاجساً لذيذاً كان يؤكد أنها ستحظي بالوظيفة.. كما أنها ببساطة.. كانت تجيد الفرنسية.

«شقة ١٥» ألقاها البواب فى رتابة وهو يشيح بوجهه .. سبقتها كثيرات ولا شك.. فى فناء المنزل لقيها تمثال رخامى لفينوس.. كان حجمه طبيعياً .. اقتربت منه.. تأملت .. جابت عيناها الملامح النبيلة.. جعلتا تتحسسان الآلهة فى شوق من عرف وألف وأحب، كانت تهفو إلى الروعة لكن إحساساً شائكاً يشوب الجمال.. بدا لها الوجه المقدس غريباً، كان فى صمت الآلهة شئ لم تعهده، خيل لها أن بشفتى الربة انقباضة ما، تعبيراً خاصاً غامضاً عميقاً.. كان ألماً تعجز عنه آلهة الأحجام الصغيرة.

نقش رقم الشقة باللاتينية.. وفى خشب الباب دقت لافتة صغيرة.. تعلن فى تواضع الثقة «محمد مصيلحى» مهندس .. (يا محمد يا مصيلحى بك أبحرت عشرة أعوام بين السطور وأجيد الفرنسية.. كما أن أمى قد أنهكتها طوابير الفاقة).

ضغطت على جرس الموسيقى.. لم تمر لحظات حتى انفتح الباب.. وبدلاً

من الخادم النوبى ظهرت سيدة شقراء ساور جمالها أصل أوروبى.. ثم قطعت به لكنتها فى الحديث.

- أتيت بخصوص الإعلان؟

تفضلى.. أنا مدام مصيلحى.

إلى جواره جلست أربع أو خمس فتيات.. طالبات عمل بلا شك.. لم تتبين الملامح وإن كان الفقر يطل فى قحة، أما هو فكان طبيعياً أن يتصدر المجلس برغم جلوسه فى أقصى اليمين، كان بديناً بغير إفراط أو لنقل كان جسمه ممتلئاً بقدر يكفى لمنحه لقب «بك» ولم يحدث أن واحداً من الناس قد نادى «مصيلحى بك» باسمه مجرداً.. أو حتى مقروناً بلقب آخر غير لقبه المفضل فاصلة كأن يقول أحدهم الأستاذ مصيلحى أو الباشمهندس، لم يكن أحد يجرؤ على ذلك، يستوى فى ذلك الذين يعملون معه والذين لا يعرفهم والواقع أن هذه الظاهرة لم يكن مردها إلى بدانته أو أناقته أو حتى حب الناس له، بقدر ما كانت ترجع لكون مصيلحى «بك» رجلاً قوياً متمرساً بالقوة خبيراً بفنون السيطرة، كانت له نظرته الآمرة وحركته المطمئنة الملكية حتى إنه كان يجهد فى الإقلال من إيماءاته مع تزويدها ببطء حاسم، أما نبراته فهيهات كان الاضطراب قد زال عنها من قديم ، نعم كان «مصيلحى بك» رجلاً قوياً بحق حتى حذاؤه كان لامعاً سعيداً.. «العمل .. العمل» «فى هذا العالم.. الضعف والفناء لهما نفس المعنى» هكذا كان يردد.. وسرعان ما انتقل مصيلحى من حوارى السيدة زينب حيث نشأ إلى مدينة المهندسين، وبرغم ثرائه السريع لم يكن لصاً ولا محتالاً، فبعد أن حصل على البكالوريا رفض مصيلحى أن يدخل الجامعة.. ما قيمة الدراسة؟ فضل أن

يعمل بالتصدير والاستيراد، مهنة مشروعة يقرها قانون الدولة، كان مصيلحى واقعياً، أدرك منذ البداية أن تغيير الأوضاع القائمة هو منذ قرون حلم يراود الشعراء وأبطال الكتب التاريخية.. فليتركه لهم إذن، فمن أجل التغيير يسجن الأبطال ويشردون أما هو فليس بطلاً ولا يريد أن يكون، لا وقت لديه للبطولة، كم سيعيش؟ على أحسن تقدير قد يحيا ثلاثين عاماً أخرى، فليحيا إذن ليستمتع.. ليعمل، فليناضل من أجل مصيلحى أفضل، ولتبق الأوضاع كما هى، أو لتتغير، لتكن كما تشاء، سيظل ذكاؤه على دين مصالحه، وهكذا نجح مصيلحى بك وأثرى، وازداد ثراء، وكل ليلة تعود مصيلحى بك أن يسترخى إلى جوار زوجته السويسرية الجميلة الصنع، ويقرأ قليلاً فى سير الأبطال والزعماء، المعذبين ذوى الأفكار المستحيلة، تاريخ الحمقى، واليوم يعلن مصيلحى بك فى الجرائد عن حاجته لمدرسة تعلم ابنه الفرنسية، فتتسابق الكثيرات، ويجلس مصيلحى بينهن يمحص ويختبر، ليختار أجدرهن بثقته، ويرجعه خاطر ساخر إلى الحجرة المظلمة حيث تلقى دروسه الأولى فى أحد كتاتيب السيدة زينب.. «هو المال يا مصيلحى»، والآن يجلس أمامه هذه الفتاة ذات الثوب الأبيض، وديعة هى كالنسيم، خجولة هى حتى كاد أن يشفق عليها، لكن مصيلحى بك يكره الضعف والعواطف.

- الاسم باكامل

- نادية عبد السلام

- المؤهل

- ليسانس آداب جامعة القاهرة

على شفتيها تموت الكلمات المحرجة، هى الضآلة، لابد أن تجابه عينيه.. قررت أن تبتسم.. أخفقت.

- تخرجت فى قسم اللغة الفرنسية؟ قال كأنما يقرر

- لا بل فى قسم لاتينى ويونانى

ساد صمت طويل استغرق لحظة واحدة.

- لكننى أعلنت عن حاجتى لمدرسة لغة فرنسية.. نطقها فى ود أكد به سيطرته على الموقف.. لابد أن ينطلق صوتها.

- لقد درست الفرنسية فى معهد خاص لمدة خمس سنوات

- بطاقتك الشخصية لو سمحت

وهى تسلمه البطاقة، رسم وجهها تعبيراً لا مبالياً، لمحت بطرف عينها إحدى الجالسات تهمس ضاحكة لجارتها فى المقعد...

- يا آنسة نادية.. أود أن أوضح لك شيئاً.. ليس ابنى فى حاجة لمن يعلمه مبادئ الفرنسية.. فهو يتحدثها بطلاقة.. إنما هو يحتاج لمن تتابع معه دروس مدرسة الليسيه.

- أنا أجيد الفرنسية.

- سنرى على كل حال.. يا كريم..، نادى ملاطفاً.. يبرز طفل أشقر يقترب من والده.

- هذه هى مدموازيل نادية .. مدرستك الجديدة.. هيا صافحها.. وتحدث معها بالفرنسية.

- حسن

- هل أنت مدرستى الجديدة؟ .... كانت تجيد الفرنسية

- بابا إنها لا تتكلم

كان مصيلحى بك ينصت وقد تشاغل عنها بقراءة الأوراق وعندما رفع رأسه. كانت نادية تهم بالإنصراف.....



هذا الكاتب يمتلك موهبة قوية مسلحة بالفصاحة والبلاغة فهو يناقش تلك العلاقة العكسية بين الوعى والفعل رافضاً كل شئ، حوله فى تعالٍ غير مجد و تصير العزله قدره لأنه فهم ... انه أقترب ورأى .. يفقد الرغبة لأنها مشاركة فى حياه أنسحب منها .

علاء الديب - مجلة صباح الخير

بعد هذه المقدمة الصادمة يدخل الى عالم أبطاله من المصريين البسطاء، وبرغم قسوة الظاهرية الا أنه يفيض حباً عميقاً لكل ما فى هذا الوطن ويصور بدقة وجرأة ال ، الانسانية التى يضعها تحت عدسة طبيب ماهر. الشخصيات ى تسعى فى صمت فى المنطقة الرمادية من الحياة ها هى مهنة ا لنا أديباً أخر موهوبا وعملاقاً بحق .

جمال الغيطانى - جريدة الأخبار

هذه الرواية عمل ى رفيع . أهم ما يميزها الجرأة والشجاعة فى تعرية الانسان الناضج الواعى فى مناخ متخلف تنمو فيه جذور الجهل وتعلو قيم السلبية والكسل والبلاده .

نوال مصطفى - جريدة الأخبار

لقد أندفع المؤلف فى قصصه دون أستئذان ليباغت القارى، ويستفزه من خلال تعريته لتفاصيل حياه شريحة معينة فى المجتمع والتى تضم بعض أشباه المثقفين والموظفين الذين ينتمون الى الطبقة المتوسطة .

شريف فتحى - مجلة روز اليوسف

نحن أمام كاتب يعزف عزفاً جماعياً على آله واحده ويتمرد على كل ما هو تقليدى دون أن يفقد جرأته المحكمة .

رأفت الخياط - جريدة المساء